مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات

وهى مختار ما كتبه الكاتب من الرسائل فى جريدة المؤيد أو غيرها من الجرائد

تحت عنوان «النظرات» أو غيره من العناوين ما كتبه من الرسائل ولم ينشره

الجزء الثانى

الطبعة الأولى

٢٠٢٣م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
قصص وروايات

تصميم الغلاف:
هاجر محمود

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

المنفلوطى، مصطفـى لطفى بن محمد لطفى بن محمد، 1872 – 1924.
النظرات/ بقلم: مصطفى لطفى المنفلوطى.
ط 1 – القاهرة: دار المعارف، 2023
264 ص، 19.5 سم.
تدمك 3 9342 02 977 978
1 – المقالات العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 814
رقم الإيداع: 5161/ 2023
رقم أمر التشغيل: 60/ 2021 /1
رقم الكونجرس: 1 – 841611 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

البعوض والإنسان

جلست ليلة أمس إلى منضدتى وعلقت قلمي بين أصابعي، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه.. وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي: أنني لا أميل إلى الكتابة في بياض النهار، ولا أحب أن أخط حرفا على ما أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه.

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أننى أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، أو أنني أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته إلى سماء الخيال، فكل ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو أدرى بدخيلة أمري مني، وكل ما في المسألة أن هذه عادتي وتلك طريقتي، وكفى.

لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في أذني، ثم أحسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعا وتجمع من همي ما كان مفترقا، ولم أر بدا من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل.

طاردته بالمذبة فما أجدى ذلك نفعا لأنه على الطيران أقوى مني على المطاردة، وفتحت النوافذ لأخرج ما كان داخلا، فدخل ما كان خارجا، وحاولت قتله فوجدته مبعثرا؛ ولو كان مجتمعا في دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة، ولم أر في حياتي أمة ينفعها تفرقها

ويؤذيها تجمعها غير أمة البعوض؛ فما أضعف هذا الإنسان، وما أضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه، واعتقاده أن في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد! وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا أن يرسل أشعة عقله دفعة واحدة، ويشحذ سيف ذكائه، ويبتعث عزيمته، ويقتدح فكرته.

يزعم ذلك، وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه في مدافعة أصغر الحيوان جسما وعقلا، وأدناها قيمة وشأنا، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه، وفي فلتات وهمه. ولو علمه علما يتغلغل في نفسه، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه، وخفض من كبريائه، وعلم علم اليقين أن الإنسان العاقل، والحيوان الملهم، والنبات النامي، والجماد الجامد، سواء بين يدي القوة الإلهية الكبرى، التي لا ينفع معها حول ولا قوة.

علمت أني عييت بأمر هذه الحيوان، فلذت بجانب الصبر، والصبر – كما يعلم معشر الصابرين – حجة العاجز، وحيلة الضعيف وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين، وفضول المتطفلين، وقلت في نفسي: لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتي، وشرحت له عذري، وسألته أن يمنحني ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي، ينزل منهما حيث يشاء، ويمتص

منهما ما يشاء، ولكنه – ويا للأسف – لا يسمع شكاتي، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة، لأنه ليس بإنسان.

أحسب أن لدغات البعوض قد أخذت مأخذها من عقلي وفهمي؛ وأني قد بدأت أهذي هذيان المحموم؛ فمن أين لي أن لو كان البعوض إنسانا كان يسمع شكاتي، ويكشف ظلامتي، أو أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة، ومتى كان الإنسان أحسن حالا من البعوض وأرحم منه قلبا وأشرف غاية، فأتمنى أن لو كان مكانه؟ بل، من أين لي أن هذا الذي أحسبه بعوضا ليس بإنسان تقمص البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق؟ وأي غرابة في أن أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل إلى الأذى، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية، والصفات المقوّمة للماهية.

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعا في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفردا؟

إن البعوض في امتصاصه الدم من الجسم أقل من القاتل ضررا وأشرف غاية، وأجمل مقصدا؛ لأنه إن أذى الجسم فقد أبقى على الحياة؛ ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف له طريقا سواه ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر.

إني وجدت بين الإنسان والبعوض شبها قريبا في صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفا منها وتارك لفطنتك الباقي.

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله، فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر، فهو يطلب الحياة من طريق الموت، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك، وهو أشبه شيء بشارب الخمر: يتناول الكأس الأولى منها، لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته، فتطمعه الأولى في الثانية، والثانية في الثالثة، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويودي بها، من حيث يظن أنه ينعشها، ويجلب إليها سرورها وهناءتها.

البعوض سيئ التصرف في طلب العيش؛ لأنه لا يسقط على الجسم إلا بعد أن يدل على نفسه بطنينه وضوضائه. فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه، أو يفتك به قبل بلوغ إليه، فمثله في ذلك كمثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية: يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتمونها، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم، ولا يبتغون الوسيلة إليها إلا بين الصراخ والضجيج، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملئوا الخافقين بذكرها؛ ويشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها، وهنالك يدرك عدوهم مقصدهم، فيعد لها عدتها ويتلمس وجه الحيلة في إفسادها عليهم هادئا ساكنا من حيث لا يشعرون.

البعوض خفيف في وطأته، ثقيل في لذعته، فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره، ويسوءك مخبره! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء، والسحر الحلال جمالا وبهاء، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب، ولا يتسرب إليها سلسبيل الوفاء، يقول لك: إني أحبك ليغلبك على قلبك، ويملك عليك نفسك، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوي المال، وجاهك إن كنت من ذوي الجاه؛ فإن لم تكن هذا ولا ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك، ويثلم شرفك، فإن فاته ما يشفي به داء بطنته، لا يفوته ما يطفئ به نار حقده وموجدته.

لا يزال البعوض ملحا في مهاجمتي، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد أكثر مما كتبت، والسلام.

الجزع

يا صاحب النظرات:

لي صديق سقط في امتحان «البكالوريا» هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيرا كبيرا، فهو لا ينفك باكيا متألما حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون، وكلما عزيناه عن مصابه يقول: كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي؟ وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي؟ فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك، التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟

حقوقي

ليست المسألة مسألة صديقك وحده، بل مسألة الساقطين أجمعين، فإن المرء لا يكاد يتناول نظره منهم في هذه الأيام إلا وجوها قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء، وجفونا تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج، حتى ليخيل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفوسهم، وجواهر عقولهم، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سدا لا تنفذه المعاول، ولا تنال من أيده الزلازل.

خفِّض عليك قليلا أيها الطالب، فالأمر أهون مما تظن، وأصغر مما تقدر، واعلم وما أحسبك إلا عالما أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك، ولم يهو بك القضاء إلى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر.

إنك قد سعيت إلى غرض فإن كنت هيأت له أسبابه، وأعددت له عدته، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك، فحريٌّ بك ألا تحزن على مصاب لم يكن عملا من أعمال يديك، ولا جناية من جنايات نفسك عليك، وإن كنت قصرت في تلمس أسبابه، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس، فما حزنك على فوات غرض كان جديرا بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيرا لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام، ومطاوعة الأقدار؟ هل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي؟ وعلى الفلك ألا يدور إلا بسعدك، ولا يجري إلا بجدك؟ وعلى القلم ألا يكتب في لوحه إلا ما دللته عليه، وأوحيت به إليه؟

لا تجعل لليأس سبيلا إلى نفسك، فلعل الأمل يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك، وامض لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك، فإن تم لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك، أو لا، فما فقدت إذ

فقدت إلا ورقة كان كل ما تستفيده منها أن تشتري بها قيدا لرجلك، وغلا لعنقك، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الأسراء في سجون الآسرين.

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك، وغاية همتك، وأنك لا ترى بعدها مزيدا من الكمال لمستزيد، فإن صدقت فراستي فيك، فاعلم أن الله قد خار لك في هذا المصير، وساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه، إنه ما خيَّب رجاءك في هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالا معلوما، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق، إلا لتسعى وراء الشهادة المكتوبة في صفحات القلوب.

إن كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شأن للحكومة فيه، ولا حاجب لها عليه، وما هو إلا أن تجد في التزيد من العلم والمعرفة، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية، فإذا أنت شريف في نفسك، وفي نفوس الخاصة من الناس، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب، ولا حيا الله شرفا يحيا بورقة ويموت بأخرى، ولا مجدا يأتي به سطر ويذهب به سطر،وإن كنت تبكي على العيش، ففي أي كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقف على الموظفين، وحبائس على

المستخدمين؟ وأنه لا يأمر بصرف درهم واحد من خزائنه إلا إذا جاءته حوالة بتوقيع أمير، أو إشارة وزير؟

أيها الطالب:

قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء: إن الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه، وإن الذي صوَّر لي أعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها إلى ما خلقت له، وإن الذي خلقني سوف يهديني، إنه الرزاق ذو القوة المتين.

الاتحاد

ألمت بى كربة من تلك الكرب التي لا تزال تختلف إليَّ كما تختلف إلى المحموم نوباته.حينا بعد حين.

كربة ما كفاها أنها حبست قلمي عن الكتابة وفكرى عن الحركة حتى حالت بينى وبين مطالعة الصحف والإشراف على الأمة من نوافذها برهة من الزمان. ثم أدركتني رحمة الله فاستفقت فإذا صخب ولجب. وغوغاء وضوضاء، وأصوات ملء الفضاء وكظة الأرض والسماء، فما هو إلا سؤال السائل و إجابة المجيب حتى عرفت كل شيء.

عرفت أن الأمة المصرية في موقف من أحرج مواقفها. ومسلك من أضل مسالكها. وأنها بين ماضغي الأسد وفوق روق الظبي. وأن حوادث الدهر وعاديات الأيام قد ملكت عليها سبيلها والتفت حولها التفاف الحية بالعنق وأحاطت بها إحاطة الجامعة باليد والقيد بالرجل. فمثلها كمثل رجل أحاطت النار ببيته من كل جانب وعلقت بسقوفه وجدرانه. ونوافذه وأبوابه. فما هو بناجٍ إن أراد نجاء. ولا بباق إن أراد بقاء. بل مثلها. كمثل آخر ضل بهِ سبيله. واشتبهت عليه مسالكه. في ليلة داجية مدلهمة قد غابت كواكبها. واستسرت نجومها. فوقف وقفة الحائر المضطرب يسمع

العواء والزئير. والضجيج والصفير. فلا يعلم أيقدم فيزداد ضلالا. أم يحجم فلا يجد مجالا. أم يقف فيصبح فريسة المفترس ولقمة المزدرد.

عرفت أن الأمة المصرية أصبحت لا تدري ما تريد. ولا ما يراد بها. ولا تجد من يرد إليها رشدها. ولا من يمد يده إليها. ليأخذ بيدها في هذا الظلام الحالك. والليل المدلهم.

كثر رؤساؤها. وتعددت قادتها. وتنوعت مذاهبهم. واختلفت طرقهم. واستحكمت حلقات البأس بينهم فلم يتفقوا في شأن من شؤون هذه الأمة على شيء إلا على وضع حبل متين في عنقها قد أخذ كل منهم بطرف من طرفيه جذبه إليه جذبة المستقتل المستميت حتى بح صوتها. وضاق صدرها. وتعلقت أنفاسها. وجحظت مقلتاها. وجف ريقها، وتحجر لسانها. وهم ينظرون إليها نظرة المداعب اللاعب. ولا أحسب أنهم تاركوها حتى يفرقوا بين الرأس والجسد فراقا لا لقاء بينهما من بعده.

لو بُعث أرسطو واضع علم المنطق من قبره وأراد أن يضع لهذه الأمة حدا تاما جامعا مانعا لما استطاع إلا أن يضع لها هذا الحد «الأمة المصرية هي التي تصدق كل ما يقال». ولقد عرف كل أولئك اللاعبين بها والعابثين بميولها وأهوائها منها هذا الخلق وتلك الطبيعة وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد فنفذوا من تلك الآذان اللينة إلى تلك القلوب الطيبة فما بلغوها حتى أخذوا يلعبون بها

لعب الصبي بكرته. ويتلقفونها واحدا بعد واحد. فهي لا ترتفع حتى تتناولها الصوالجة. ولا تستقر حتى تدفعها الأقدام. كلٌّ يزعم أنه صديقها وكلٌّ يزعم أنه لها على عدوها. والله يعلم أنهم أعداؤها قبل الأعداء. وخصومها أكثر من الخصماء، وأن السماء بصواعقها ورجومها. والأرض بزلزالها وبراكينها. أعجز من أن تبلغ منها ما بلغوه. أو تجني عليها ما جنوه.

فيأيها الرؤساء والزعماء: أي خير تطلبون لهذه الأمة بعد أن فرقتموها شيعا. وصيرتموها أحزابا. وقطعتم أوصالها ووشائجها. وألقيتم العداوة والبغضاء بين الرجل وولده. والرجل وأخيه. والجار وجاره. والصديق وصديقه. حتى ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضى لسبيله. وحتى تناكرت الوجوه. واستوحشت النفوس. وأصبحت ساحة البلد كساحة الحرب. لا ترى فيها إلا نابا يقرع نابا. وعينا تنظر شزرا وصدرا يغلي حقدا. وقلبا يخفق خوفا وحذرا.

كل غرض تزعمون أنكم تسعون إليه لإبلاغ هذه الأمة أمنيتها من السعادة والهناء. لا قيمة له بعدما أضعتم عليها غرضها من الاتحاد والائتلاف. بل لا سبيل لها إلى بلوغ غرض من أغراضها إلا إذا كان الاتحاد قائدها إليه. ودليلها عليه.

ليس هذا التنافر بين أفراد الأمة والتفرق بين جماعاتها حالة من الحالات الطبيعية التي لا بد منها. ولا مناص عنها. أو حادثة من الحوادث السماوية التي تحتملها النفوس. وتسكن إليها القلوب.

وتطرف عليها العيون إجلالا للسماء. ورضاء بالقضاء وإنما هى صنعة أيديكم. وجناية أقلامكم، ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها. وخليتم بينها وبين فطرتها. ما كان يخطر لها ببال أن تتعادى وأن تتباغض ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدثه نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الأحزاب.

عجز الاختلاف الديني بين عنصرى الأمة المصرية عن أن يفرق بين أوصالها. وأن يحل جامعتها. وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعتها تأثير أمثاله في أمثالها من الجوامع الأخرى. فكيف لا يعجز الاختلاف السياسي. عما عجز عنه الاختلاف الديني والجنسي. لولا أنكم كبرتم ما صغر من هذا الاختلاف وعظمتم منه ما حقر. وألححتم عليه إلحاحا شديدا حتى حولتموه إلى فتنة شنعاء. وغارة شعواء.

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الأمة ولا شفقة عليها، فإن قلوبا مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحكم أقسى من أن ينفذ فيها سيف الضارب. أو قلم الكاتب. وإنما أريد أن أحدث الأمة المصرية بكلمة لا أريد منها أن تأخذها مني عفوا ولا أن تسلم بها قبل إنعام نظرها فيها. وعرضها على عقلها. فذلك ما لا أحبه لها. بل ذلك ما أنقمه منها.

أيها المصريون: إني لأكتب إليكم كلمتي هذه وليس على وجه الأرض ولا تحت أديم السماء أمة أحبّ إليَّ منكم. وحسبكم من ذلك

الحب أني أسمع بالكارثة تحل بكم والنازلة تنال منكم، فيشغلني من أمركم ما لا يشغلني من أمر نفسي. وتجود عيني في سبيلكم على ما بها من جمود وشح بما لا تجود بمثله في أحرج مواقفها. وأصعب مواطنها.

بهذا القلم الذي يستمد مداده من هذا القلب المخلص إليكم أدعوكم إلى الاتحاد والائتلاف وأن تتبايعوا بين يدي الله والوطن على الحب والود والصفاء والإخلاص وألا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذا ينفذون منه إلى قلوبكم. فإن طاف بكم طائف من شياطينهم فأعرضوا عنه وامضوا في سبيلكم. واحذروا أن تكونوا سيقة لرئيس أو لعبة في يد زعيم وليكن كل منكم زعيم نفسه. ومسترشد قلبه. فنفوسكم أرحم بكم. وقلوبكم أصدق في نصيحتكم. فإن فعلتم ذلك نجوتم من ذل الانقياد. وسلكتم سبيل الرشاد. وأصبحتم و إذا أنتم أمة واحدة ترى رأيا واحدا وتحس إحساسا واحدا.

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف في الرأي والاضطراب في المذهب إنما هو وهم من الأوهام الكاذبة. وخيال من الخيالات الباطلة. ولو رجعتم إلى أنفسكم وأصغيتم إلى أصوات قلوبكم لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه على حب الوطن وإرادة الخيرله.

سدد الله طريقكم. وأنار لكم سبيلكم. وأفاض عليكم من رحمته وإحسانه ما يفرج كربتكم. ويكشف غمتكم. والسلام.

النبوغ

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزنًا، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا، خير ممن يخطئ في تقديرها متدليًا؛ فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده؛ فتراه صغيرًا في علمه، صغيرًا في أدبه، صغيرًا في مروءته وهمته، صغيرًا في ميوله وأهوائه، صغيرًا في جميع شئونه وأعماله؛ فإن عظمت نفسه عظم في جانبها كل ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحد الأئمة العظماء ولده، وكان نجيبًا: أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب أن تكون؟ فأجابه: أحب أن أكون مثلك، فقال: ويحك يا بني! لقد صغرت نفسك، وسقطت همتك، فلتبك على عقلك البواكي، لقد قدَّرت لنفسي يا بني في مبدأ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب، فما زلت أجد وأكدح حتى بلغت المنزلة التي تراها، وبيني وبين عليّ ما تعلم، من الشأو البعيد والمدى الشاسع؛ فهل يسرك، وقد طلبت منزلتي أن يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين عليّ؟.

كثيرًا ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس؛ وبين الكبر وعلو الهمة، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعًا، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا، وعرف حقيقة منزلته

من المجتمع الإنساني متكبرًا؛ وما التواضع إلا الأدب، ولا الكبر إلا سوء الأدب؛ فالرجل الذي يلقاك متبسما متهللا، ويقبل عليك بوجهه، ويصغي إليك إذا حدثته ويزورك مهنئًا ومعزيًا، ليس صغير النفس كما يظنون، بل هو عظيمها؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه فتواضع، والأدب أرفع لشأنه فتأدب.

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر

فإذا بلغ الذل بالرجل ذي الفضل أن ينكس رأسه للكبراء، ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثمًا وتقبيلا، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة، ويبصبص برأسه، وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق، وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة، لا متواضع ولا متأدب.

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزري به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة- كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ في هذه الحياة، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العلم، لأن حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته، وأثر من آثاره؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران.

فيا طالب العلم كن عالي الهمة، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظرًا يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب، أو خرافة من خرافات الجان؛ وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول: من لي بسلم أصعد عليه إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم، أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك؛ وجو غير جوك، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك؛ ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسع من رقعة الأرض، وأرحب من صدر الحليم، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة، فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون.

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى سماء المجد والشرف: علو الهمة، والفهم في العلم، أما علو الهمة فقد عرفته. وأما الفهم في العلم، فإليك الكلمة الآتية:

العلم علمان: علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ

كلمة، أو تقرأ في الكتاب صفحة؛ فإن أشكل عليك شيء مما تسمع، فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نطق الحافظ بتفسير كلماته.

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قوي الذاكرة، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل؛ لأن الحافظة ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات: وإنك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها، ويرتعد فرقًا حينما يسمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الجن، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دونته لكان تاريخًا صحيحًا ضخمًا مملوءًا بالغرائب والنوادر؛ وقيل لأحد العلماء: إن فلانا حفظ متن البخاري، فقال: لقد زادت نسخة في البلد!

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين؛ لأن من فهم معلومًا من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له بدًا من العمل به رضي أم أبى.

لولا أن العلم الديني قد أصبح اليوم علمًا محفوظًا لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية والتردد على أبواب الأحياء والأموات في مزاراتهم في مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من يسند النفع والضر إلى كل من سال لعابه وتمزق إهابه، ولا وجدت في الناس كثيرًا من ضعفاء

العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل، ثم لا تجد فرقًا بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات.

لو كان العلم المحفوظ علمًا – وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى – ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة، ولا قدَّسه كاتب، أو ترنم بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ؛ وآية فهم المعلوم تأثر العالم به، وظهوره في حركاته وسكناته، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك. فربما مرَّ بالمعلوم محرفًا فأخذه على علاته، وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه، والغث والسمين، والجيد والزائف، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية، بالعقاقير السامة.

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيُسأل عن مذهب، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدي به، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين. وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم

أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور[1] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة، أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهومًا لا محفوظًا، ولا يكون مفهومًا إلا إذا أخلص المتعلم إليه، وتعبد له، وأنس به أنس العاشق بمعشوقه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحترف إلى حرفته؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه، لا ما يغلو جوهره؛ والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء.

لا يزور العلم قلبًا مشغولا بترقب المناصب، وحساب الرواتب، وسوق الآمال وراء الأموال، كما لا يزور قلبًا مقسمًا بين تصفيف الطرة، وصقل الغرة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام بالكأسين: كأس المدام وكأس الغرام.

---

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدينا إلى انتهائها.

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة، تشكو ألمًا في عنقها، وجرحًا في ذراعها، وهمًا في نفسها، وتدير في الحاضرين عيونًا حائرة مضطربة كأنما رُكبت على زئبق رجراج؛ فسألت: ما شأنها؟ فعلمت أن أهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشي الخَلقِ والخُلق. ثم زفوها إليه فحاول أن يفترشها، وهي على حالة لا تستطيع معها أن تُلم بفراش فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجز، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها، ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة أو غفلة، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من السجن إلى سجنه مرة أخرى؛ وهنالك عاد زوجها إلى عادته معها، فعادت هي إلى فرارها، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم. فلمَّا أعياها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهبًا ولا مستقرًا، حتى رُفع إلى ذلك الحاكم شأنها، فآواها إلى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رُفعت إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدرًا فعقرها كما عقر شقي ثمود ناقته من قبل.

إن المرأة المصرية شقية بائسة، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها.

إنها لا تحسن عملا، ولا تعرف باب مرتزق، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشًا رغدًا، أو لا، فلا مفر لها من الشقاء؛ من المهد إلى اللحد.

ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام، وعقبات جسام، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام.

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين استثقل أهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة. والقومة والقعدة، ورأوا أنها عالة عليهم، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئًا. وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب، يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها.

وإن قومًا هذا مبلغ عقولهم من الفهم، وقلوبهم من القسوة، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، أو يُحسنوا الاختيار لها فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأنًا من شئون أهله، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل.

فإن كانت ذات جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب، والجمال المصنوع، آلامًا جثمانية تطفئ نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم، والابتسام في موضع البكاء إن بكى ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءًا بالكذب والكيد، والخبث والرياء، وهي على ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام.

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي، فما أنس لا أنسى ليلةً زرت فيها صديقًا لي، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية. وكأنما هي الخلال رقة وذبولا، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفة بهم أن يُلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها، فسألتُها عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكمًا من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و«الإدارة» تماطلها في إنفاذه، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدّة ومعالجة القوت. ما أسال شئوننا؛ وصعد زفراتنا. وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدّعا.

فخففت أنا وصديقي شيئًا من آلامها فانصرفت؛ وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت فجأة بحمى دماغية فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس، وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة.

أيها الرجل. إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك، واستعدادًا مثل استعدادك، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك.

إن كنت زوجًا فلا تطردها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها، وإن كنت أبًا فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعًا، ولا تلق بها في حجر وحش ضارٍ يأكل لحمها ويمتص دمها، ثم يلقي إليك بعظامها.

ويا أيها المحسنون. والله لا أعرف لكم بابًا في الإحسان تنفذون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة، وأدبوها ليتربى في حجرها المستقبل العظيم. للوطن الكريم.

افتحوا لها المكاتب. وابنوا لها المدارس. وعلموها من العلم ما يرفع همتها. ويرقي آدابها. ومن الصناعة ما يناسب قوتها. وما يُشبع جوعتها. إن نبا بها دهر. أو تجهَّم لها حظ.

مدرسة الغرام

كنت لا أســأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية الغربية مبلغا يؤهلها لمجاراة تلك الأمم في عظمتها وسلطانها، فأصبحت أســأله أن لا يســتجيب دعائي لهــا وأن لا ينيلها من تلك المدنية فوق ما أنالها.

أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيئان متلازمان. وأخوان معتنقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها. فكيف أتمناها لأمة هي أعز عليّ من نفســي التي بين جنبيَّ.

قرأت حوادث الانتحــار في الغرب، فقلت قوم ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر ورزاياه فلم يســتطيعوا الوقوف وقفة الشجاع المســتقل، ففروا من وجهه إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في أكسار القبور، وما أكثر الجبناء في مواقف الحروب.

قرأت حوادث المبارزة هناك فقلت قوم عجزت يد المدنية الحاضرة أن تســتل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدونه في الهمجية الماضية من أن العرض إناء إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيرا ما تورد العقائد النفوس موارد الحتوف.

قرأت حوادث عشــاق الموتى الذين يتســللون تحت ستار الليل إلى المقابر فينبشــونها عــن رُفات الفتيات المقبورات، شــوقا إلى لثمةٍ من

خد يرشــح صديده، أو رشــفة من ثغر يتناثر دوده حتى أنه ليروقهم من الســاكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من المقصورات في الخيام. وقرأت أن الحكومة طاردتهم عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين معاهد غرامهم، ومراتع عشــقهم وهيامهم، فــأرادوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالا عندما فاتهم الإلمام بهم حقيقة، فأنشأوا لأنفسهم تحت الأرض قاعة كبرى كســوا جدرانها بالأستار السوداء، ووضعوا في وســطها صندوقا من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تتصنع الموت باصفرار لونها، وإسبال جفونها، وسكون أعضائها، فإذا لج بأحدهم الشوق إلى قضاء حاجة من فتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء وعالج خياله على أن يتصورها قبرا مظلما موحشــا، يضم بين جانحتيه فتاة ميتة لا حراك بها، ثم يلم بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارة أُعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال.

قــرأت هذا وقــرأت أن من الناس ناسًــا فى تلك الديــار الغربية تجاوزوا ذلك الحد إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان، حتى أنهم نصبوا لأنفســهم مواخير خاصة يُلمون فيها بالدجاج إلمام غيرهم بالبغايا من النســاء، فقلت لا عجب في ذلك وهل هو إلا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلا.

إن كنــت أغتفر للمدنيــة الغربية كل ذنوبها فإنــي لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النســاء والرجــال فنون الحب والمغازلة

جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأسًا. ولا يجدون فيه متلومًا..

وقد وضعوا لها هذا النظام:

يوم «الأحد – دروس استعدادية»

«الإثنين – الغزل»

«الثلاثاء – المطارحة»

«الأربعاء – صناعة التقبيل والتجميش»

«الخميس – فلسفة الدلال والتصبي»

«الجمعة – انتقاء مواعيد اللقاء»

«السبت – الامتحان»

هذه هي المدرسة الغرامية، وهذا نظامها، فهل سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي يسمونها بالأمم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من الشبه فى حب الشهوات والاستهتار بها بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها إنها زهرة المدنية الحديثة، وتاجُها المرصع؟

لماذا نسمي قبائل الزنوج قبائل متوحشة، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزبًا من عزابهم ينام وسط البيوت مخافة أن يكون له سبيل إلى مخالطة النساء، فيأخذونهم جميعًا إلى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها ترابا معبدا، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غِرة نمَّ أثره عليه، كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى حتى لا يحدث أحد من

الرجال نفسه بقرع ذلك الباب إلا مالكه وصاحب الحق فيه؟ ولماذا نسمي الأمة الأمريكية أمة متمدنة، وها هي ذا تفتح المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها؟

إذا كان توحش الأولين لإغراقهم في صون الأعراض، فالآخرون أكثر منهم توحشًا لإغراقهم في هتكها وابتذالها، والإغراق في الخير خير من الإغراق في الشر..

فيأيها الزنجي المسكين، لقد ظلمك من سماك متوحشًا، ويأيها الأميركي المتوحش لقد كذبك من سماك متمدينًا.

أيها الزنجي الأسود : إن كنت أسود اللون، فالفضيلة أشرف من أن تتنزل إلى اعتبار السواد ذنبًا تنفر منه، وتأبى أن تأوي إليه. وإن كنت جاهلا فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها تفننًا لا أحسبك تحن إليه، أو تتقطع حسرات عليه. وإن كنت عاريًا فربما لبست من الفضيلة ثوبا يحسدك عليه – لو يعقل – ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجه ودمقسه وحريره

ولو بِتُما عند قدريكما لَبِتًا وأعلا كما الأسفل[1]

(١) أي لو نزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى مكان الأسفل، والأسفل مكان الأعلى.

البيان

قال لي أحد الوزراء الأذكياء ذات يوم «إني لتأتيني أحيانًا رقاع الاستعطاف فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبيها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئ في أكثر المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة.

هزل في موضع الجد، وجد في موضع الهزل، وإسهاب في مكان الإيجاز، وإيجاز في مكان الإسهاب، وجهل بفرق ما بين العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستعطاف والاستخفاف، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء، والعلماء والجهلاء، حتى أن الكاتب ليقيم في الشوكة يُشاكُها مَناحة لا يقيمها في الفاجعة يفجع بها، ويكتب في الحوادث الصغار، ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه، ويناجي أجيره بمثل ما يناجي به أميره.

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متفرقة، واختلفوا في شأنه اختلافًا كثيرًا، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها.

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، فإن علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العي والحصر.

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فأغصُّوا بها صدور كتاباتهم، وحشوها في حلوقها حشوًا يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها، فإذا قُدّر لك أن تقرأها، وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا، وفؤادًا جلدًا، وجنانًا يحتمل ما حُمل عليه من آفات الدهر ورزاياه، قرأت متنًا مشوشًا من متون اللغة، أو كتابًا مضطربًا من كتب المترادفات.

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول، والتبسط في الحديث، واقعًا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرّتها، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقتها، حتى تسفُل وتتبذل، وحتى ما تكاد تُسيغها الحلوق، ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

يُخيل إليّ أن الكتَّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحدته، فإني لا أكاد أرى بينهم من يضع فمه على أذن السامع وضعًا محكمًا، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه، وهواجس نفسه.

البيان صلة بين متكلم يُفهم، وسامع يَفهم، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط، فإن

أردت أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك، واحرص الحرصِ كله على أن لا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين.

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتبًا عربيًا قبل أن يطّلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم، ومدحهم وهجوهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون، ويعظون وينصحون، ويتغزلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون، وبأي لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمدادًا يملأ ما بين جوانحه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه.

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعر به المنتقل دُفعةً واحدة من غرفة مُحكمة النوافذ، مُسبلة ستورها، إلى جو يسيل قرا وصرًا، ويترقرق ثلجًا وبردًا.

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغتبط بها، ولا هي بالعامية فأتفكه بهذيانها ومجونها.

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين اثنين: رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة، وربما كان كتاب تلك المخطوطات أحوج من قارئها إلى الاستمداد فإذا علقت بنفسه تلك الملكة

الصحفية ألقى بها في روع قارئ كتابته أدون مما أخذها، فيدلي به آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهًا، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشيّ، وطالب قُصارى ما يأخذه عن أستاذه نحو اللغة وصرفها، وبديعها وبيانها، ورسمها وإملاءها، ومفرداتها ومتونها ومؤتلفاتها ومختلفاتها وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها، أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان في المدارس علماء غير أدباء، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة، ويوحي له بسرَّها، ويُفضي إليه بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها، وعندي أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أن طالب علم الأخلاق لا يستفيده إلا من أستاذ كملت أخلاقه وحسنت آدابه. كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مُبين.

ولا يُقذفن في روع القارئ أني أحاول استلاب فضل الفاضلين أو أني أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا أردت ولا إليه ذهبت، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين، وخمسة من الشعراء البارعين، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب.

وبعد فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلا إليه إلا مزاولة المنشئات العربية منثورها ومنظومها، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج. فإن رأيت أنك قد شغفت

بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها، وأن قد لذَّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب، فامض لشأنك، ولا تلو على شيء ممَا وراءك حتى تبلغ من طلبتك ما تريد.

ولا تحدثنك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشئات العربية لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه، فإني لا أحب أن تكون سارقًا أو مختلسًا، على أنك إن ذهبت إلى ما ظننت أنى أذهب إليه فى نصيحتك لم يكن دركك دركًا، ولا بيانك بيانًا، وكان كل ما أفدته[1] من ذلك أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها، وبُردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها، وإنما أريد أن تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها بصورة واحدة حتى لا يكون شأنُك شأن أولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها، فقنعوا بها، وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا. فإذا جد الجد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء من خلجات نفوسهم، رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها، فإن وجدوا بينها ما يدل على المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعًا وحشروه في كتابتهم حشرًا. وإلا فإما يتبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة أو يَهجُروا تلك المعاني إلى أخرى غيرها، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها، لابد لهم من

(١) بمعنى: أفاد واستفاد.

إحدى السوأتين إما فساد المعاني واضطرابها، أو هُجنة التراكيب وبشاعتها.

فاحذر أن تكون واحدًا منهم، أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيقُ من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة، وأنهم ما لجئوا إلى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها. فاللغة العربية أرحب صدرًا من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما وسعت من دقائق العلوم ما لا قبل لغيرها باحتماله؛ وقدرت من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وسرائر القلوب على الذي عيّت به اللغات القادرات.

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها، والتغلغل في أثنائها، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تُثلج صدرًا، ولا تشفي أوامًا.

وكل ما يُعدّ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لهذه الهنات المستحدثة، وهو في مذهبي أقل الذنوب جرمًا وأضعفها شأنًا، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه، أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق، فالأمر أهون من أن نحار فيه، وأصغرُ من أن نقضي أعمارنا في الوقوف ببابه، والأخذ والرد فى شأنه. والمساجلة والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه، وأجداها عليه.

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تُزاوله من المنشئات العربية، فليس كل متقدم ينفعك، ولا كل متأخر

يضرك، ولا أحسبك إلا واقفًا بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب، لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال، وتقطع دونها أعناق الرجال، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقًا سليمًا، وقريحة صافية، وملكة في الأدب كأنها مصفاة الذهب، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يُلقى فيها من البذور الطيبة، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه، تناثر الورود والأنوار من حديقة الأزهار.

* * *

السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الإنسان لرأى منها ما يرى من غرائب هذا الكون وعجائبه أعمى أدركته رحمة الله بعد طول محنته فارتد بصيرًا.

تتراءى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء، فإن بدا لك أن تكتنه باطنها فإنك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق السماء، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات.

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تَمُجّ الشمس لُعابَها من نافذة غرفته فإذا هو مائج وضاء يروح ويغدو رواح السانحات. وغدو البارحات، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يصورها فى نظره تصويرًا يخيل إليه أنه كاد يلمسها بيمينه، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد إلى الوصول إليها سبيلًا.

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه، فلجّ بهم الشوق إليها لجاجًا طار بعقولهم وذهب بألبابهم، فتراموا على أقدام المنجمين والعرّافين لثمًا وتقبيلا، وابتدروا النَّصُبَ والتماثيل ركوعًا وسجودًا، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام

الإبل العطاش بمنازل الماء، يطلبون ما وراء السريرة، والسريرة كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات، ولا تُجدي معه العزائم والرُّقى.

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكوكب في جنح ليل مُبرد، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار، فتحسده على نعمته وسعادته، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد، وإن بين جنبيه لو تعلم همًا يعتلج، وقلبًا يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الأعمار، وكبدًا مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والأحزان ما وجد من يبتاعُها منه بأبخس الأثمان.

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحُلو، وثغره المبتسم، ويروقك من وُدّه كلفه بك وإعظامه لك وإعجابه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعه لآرائك ومذاهبك، ولو كُشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو استطعت لك أن تبتاع أقدام السليك[1] بجميع ما تملك يمينك، ففررت من وجهه فرارك من وجه الأسود السالخ[2] ووددت بجدع الأنف أن لا يصافح وجهُك وجهه من بعدها حتى في جنة النعيم.

لولا ما أسدل الله دون السرائر من الحجب لبُدّلت الأرض غير الأرض، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات.

---

(١) السليك: رجلٌ معروف بسرعة عدوه فى العرب.

(٢) ذكر الحيات.

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا «نيشانًا» في صدر القائد، أو جوهرة في تاج الملك، وأنهم كثيرًا ما يكونون مخدوعين في وقائعهم ومواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين، لما دالت الدول، ولا تنقلت التيجان، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان. ولو علم جهلة المتدينين أن رؤساء الأديان كثيرً ما يشترون عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من هذه المدهشات الدينية والأحلام النفسانية، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمن غال، لضعفت أصوات النواقيس، وقصرت قامات المنائر، ولهلك أرباب الطيالس والقلانس جوعًا وسغبًا، ولأصبحت حبات السُبح أكسد في سوق الأديان من بعر الشاء في سوق الأنعام، ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته، وأنه لا يعجب إلا بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه، ولا يفخر إلا بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه، ولما كان بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر. ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها، وأنه يتربص بها الدوائر ويعُد ليومها الساعات والأيام لما وثقت بوده، ولا اطمأنت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تُظلل الأسرة والمهاد.

زيد وعمرو

أراد داود باشا – أحد الوزراء السالفين فى الدولة العثمانية – أن يتعلم اللغة العربية، فأحضر أحد علمائها، وأنشأ يتلقى عليه دروسها عهدًا طويلا، فكانت نتيجة علمه ما ستراه.

سأل شيخه يومًا ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويقتّله تقتيلا ويبرح به هذا التبريح المؤلم وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير.

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظًا وحنقًا، ويضرب الأرض بأقدامه؛ فأجابه الشيخ: ليس هناك ضارب ولا مضروب، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين. فلم يعجبه هذا الجواب، وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية. فغضب عليه وأمر بسجنه، ثم أرسل إلى نحوي آخر فسأله كما سأل الأول، فأجابه بنحو جوابه، فسجنه كذلك، ثم ما زال يأتي بهم واحدًا بعد واحد حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس، وأصبحت هذه القضية المشئومة الشغل الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها، ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد، فأمر بإحضارهم فحضروا وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يُراد بهم، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق

والبصر بموارد الأمور ومصادرها، فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه، فأجابه الرئيس إن الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال، فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أسارير وجهه، وأقبل على محدثه يسأله: ما هي جنايته؟ فقال له: إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو، فسلط النحويون عليه زيدًا يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله «يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود فى الرسم» فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب، وقال لرئيس العلماء: أنت أعلم من أقلته الغبراء، وأظلته الخضراء، فاقترح عليّ ما تشاء، فلم يقترح عليه إلا إطلاق سبيل العلماء المسجونين، فأمر بإطلاقهم، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصِلات.

أحسن داود باشا في الأولى وأساء في الأخرى، ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلة البالية إلى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو، وخالد وبكر.

لا ينال المتعلم حظه من العلم إلا إذا استطاع مطابقته على العمل والانتفاع به في مواطنه ومواقفه التي وضع لأجلها، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد

ذلك العلم، وافتن له في إيرادها افتنانًا يقرّب إلى ذهنه تلك الصلة بين العلم والعمل، ويسهل له الوصول إلى القدرة على تلك المطابقة، وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعدُ الناس عن القدرة على المطابقة، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم! فلو أنك أردت أحدهم على أن يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية، وفي النحو عن ضرب زيدٍ عمرًا، وقتل خالدٍ بكرًا، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر، واستعارة الأظافر للمنية، وفي الصرف عن فعلل وافعوعل لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة، وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك على أعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر، ثم لم يحصل من بعدها على طائل.

علام يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحًا في كل كتاب وكل صحيفة؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه، وعن البيان بيانًا فصيحًا يضمنه ما يشاء من أغراضه ومقاصده. وعلام يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل مناحيه ومذاهبه، وإن لم يكن الموضوع الإنسان، ولا المحمول الحيوان الناطق.

عجيب جدًا أن يفهم الصانع الأمي أن العلم للعمل، فلا يتعلم النجارة إلا ليصنع الأبواب والصناديق، ولا الحداده إلا ليصنع الأقفال والمفاتيح، وأن يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية، فلا

يهمه من العلم إلا الاستكثار من المعلومات والقواعد، وإن عجز بعد ذلك عن التصرف فيها، والانتفاع بها في مواطنها.

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام أن ينبُغ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة انتفاع أمثالها بأمثالهم في مشارق الأرض ومغاربها، فويل للعلم من العلماء!

أبو الشمقمق[1]

إن كثيرًا من الفقراء لم تمتد يدُ الفقر إلى رءوسهم، كما امتدت إلى جيوبهم، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء، ويفهمون كما يفهمون. وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء الرءوس، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرءوس.

ولقد جلستُ في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين المستهترين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة، وزارع يفخر بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ. وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار، والكل متفقون على أن السعادة التي أظلّتهم أجنحتُها في هذا العهد الأخير، عهد الاحتلال، عهد الحرية والمساواة، عهد الترقي والعمران هي أشبه شيء بسعادة المتقين في جنات النعيم.

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه، ويهز رأسه، ويصعد أنفاسه، ويمضغ أضراسه، ويئن من قلبه أنينًا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر:

فيا لـك بحـرًا لم أجد فيه مشـربا علـى أن غـيري واجـد فيه مسـبحا

(١) هو فى الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر.

فما هو إلا أن قضوا لبانتهم من الكلام المملول، والحديث المعاد حتى قاموا يطيرون مع الآمال وراء الأموال. فأشرت إلى أبي الشمقمق أن يتخلف فتخلف. فسألته ما لك لم تشترك معنا فيما كنا فيه. فأجاب: إني أكره الفضول في الحديث وقد فرق المقدار بيني وبينكم في المال، فلا أشترك معكم في المقال، فقلت: ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمة المصرية في العهد الأخير وأنت فرد من أفرادها، وجزء من أجزاء جسمها، فنهوضها نهوضك، وسقوطها سقوطك، والأمة – كما تعلم هي الفرد المكرر والواحد الدائر، فأنت الأمة والأمة أنت فقال: والله لا أدري هل تكلمني بلسان الصوفية؟ ولست بصوفي، أم بلغة الفلاسفة؟ ولا أفهم للفلسفة معنى، وكأنك تقصدني بالفرد المكرر والواحد الدائر، فإن كنت تريد أنني فرد مكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحد لا سند لي ولا عضد؛ ودائر في مدارج الطرق ومعابر السبل، فقد أصبت وأحسنت، وإن كنت تريد معنى غير ذلك، فأنا لا أفهم إلا كذلك، فهل لك أن تُعفيني من هذه المعميات وتزن كلامك على قدر عقلي وتُحدثني فيما يتناوله سمعي وبصري. فقلت: أنا لم أخرج بك عن المحسوس المعروف، ولا أريد إلا أن الأمة ليست في الخارج شيئًا غير أفرادها، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبناؤها، وحسبك أن ترى تقدم الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها، وبذخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها، فتسعد بسعادتها تُسر

بسرورها فقال: إن لم تُبين لي سهمي من هذه السعادة، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء، وما دمت أرى أن لي تشخُصًا متميزًا عن تشخص سواي من السعداء، ويدًا تقصر عما يتناولونه، وبطنًا لا يمتلئ بما تمتلئ به بطونهم، وما دمت لا أرى واحدًا بينهم يلبس معي ردائي الممزق.. وقميصي المخرق.. ويقاسمني همي.. ويشاطرني فقري.. فهيهات أن أسعد بسعادتهم، وأسر بسرورهم.. وهيهات أن أفهم معنى قولك: أنت الأمة والأمة أنت.. فقلت: إن الغيث إذا نزل يسقي الخصيب والجديب.. والنجد والوهد؛ وينتظم من الأرض الميت والحي. فقال: كل سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر فإني أراه:

كبدر أضاء الأرض شرقًا ومغربًا وموضع رجلي منه أسود مظلم

ما لي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه.. والقصر الذي لا أدخله مالكا ولا زائرًا.. وهب أن الطرق مفروشة بالحرير والديباج لا بالحصى و«الأسفلت».. فهل أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئًا بين خشن الملمس وناعمه، ومعوج الأرض ومستقيمها؟ وهبني إذا مشيت خضت في بحر مائج بأنوار الكهرباء. فهل يغني ذلك عني شيئًا؟ وهل يكون نصيبي منه إلا انكشاف سوأتي ورثاثتي لأعين الناظرين؟! ولقد حُبب إليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مئونة الرتق والفتق.. والتمزيق والترقيع.. وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه

يعينني ويشملني؟ هل ترقت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين؟ وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت: نعم.. أما ترى الأموال التي يتبرع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية، والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال: إن هذه التي تسميها مكارم، لا يسميها أصحابُها إلا مغارم، ألجأهم إليها التملق للكبراء، وحب التقرب من الرؤساء، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب.

ما لي وللمدارس والمستشفيات، وأنا جوعان خبز لا جوعان علم.. ولا مرض عندي إلا مرض الفاقة، فهل أجد في المدارس خبزًا أو في المستشفيات دواء كذلك الدواء الذي وصفه أحد الأطباء القدماء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضًا فعرف سر مرضه فأعطاه عُلبة وكتب عليها «يؤخذ منه عند اللزوم» فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير.

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى.. فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملًا أو يحسن صنعًا، ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه، والعهد الذي تنقمون عليه، مُنفسح عظيم في منازل المحسنين ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فإني أبيت طاويًا، وأصبح شاكيًا، وأغدو راجيًا وأروح بائسًا.

وهنا أرسل من جفنيه دمعةً ليست بأول دمعة بلّل بها رداءه، ولكنها أحرُّ من سابقاتِها، لأنه لم يبك في غير خلوته غيرِ هذه المرة.

ثم نهض ومد يده إليَّ مودعًا، فمسحت بيميني دمعةً واحدة من دموعه الكثيرات.

دورة الفلك[1]

أيها القصر: أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك؟ أين النسر الطائر الذي كان يُحلق في أجوائك؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمسًا في صباحك، وبدرًا في مسائك؟

أين الأعـلام والبنود تخفق في شرفاتك؟ والقوَّاد والجنود تخطر في عرصاتك؟ أين الشفاه التي كانت تلثُم ترابك؟ والأفواه التي كانت تقبل أعتابك؟ والرءوس التي كانت تطرق لهيبتك؟ والقلوب التي كانت تخفق لروعتك؟

أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء؟ أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس، والنعيم والبؤس، والرفع والخفض، والإبرام والنقض؟

كيف استطاع الدهر أن يمد يده إلى شملك فيبدده؟ وجمعك فيفرقه؟ وسمائك فيكور شموسها؟ وأرضك فيزعج أنيسها؟

أين كانت أسوارك وأبوابك، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء؟

ولـم أر مثل القصر إذ ريـع سـربه وإذ ذُعـرَت أطـلاؤه وجـآذره

(١) كُتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد.

أيها السجن:

حلّ بأرجائك اليوم ملك كانت تضيق به الدنيا، فكيف وسعته؟ وتعجز عن احتماله قُلل الجبال الرواسي فكيف احتملته؟ رفقًا به لا تُزعجه، ولا تُحرج صدره، وضُم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع، ارحم هذا الجلال الذاهب، والعز الزائل، والرأس الذي بيضته حوادث الدهور، والظهر الذي قوسته أيدي المقدور.

أيها الدهر:

ألا تستطيع أن تنام عن هذا الإنسان لحظة واحدة؟ ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة، لا يمازجها كدر، ولا يشوبها عناء؟

إن كنت تريد أن تسلبه فلم أعطيته؟ وإن كنت تريد أن تعطيه فلم سلبته؟ كان خيرًا له أن لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية، وألا تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السم الذي أودعته تلك الكأس.

أيها الراحل المودع: كان ارتفاعك عظيما، فوجب أن يكون سقوطك عظيما.

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة، فلمَّا ذقت مرارتها جزعت

وقطبت كما يجزع ويُقطب كل من ذاق من الشراب ما لا عهد له به ولا قبل له باحتماله.

لا تأس على ما فاتك، فإنما كان وديعةً من ودائع الدهر، أعاركها برهةً من الزمان، ثم استردها.

إنك لا تدري، لعلّ الله أراد بك خيرًا فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك، وتراجع فيها فهرس أعمالك، فإن رأيت خيرًا اغتبطت أو شرًا استغفرت.

قضى الله أن يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل الراقد عبرة من العبر تزعجه من رقدته، وتوقظه من غفلته، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته.

مـن بـات بعـدك في ملك يُسـرُ به فـإنـمـا بـاتبالأحـلام مغـرورًا

تأبين فولتير[1]

في مثل هذا اليوم، منذ مائة سنة، مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير.

ما مات «فولتير» حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظيمة التي عرضت على السموات والأرض، فأبين أن يحملنها، فحملها وحده، وهي تهذيب السريرة الإنسانية فهذبها، فاستنارت، فاستقام أمرُها.

مات فولتير مرذولًا محبوبًا في آن واحد يُبغضه الماضى لأنه يجهله، ويحبه المستقبل لأنه عرفه.

إن في هاتين العاطفتين – البغض والحب. سرًا عظيما من أسرار المجد العظيم، لذلك الرجل العظيم.

كان وهو على سرير الموت محفوفًا بعاطفتين مختلفتين شكلًا، متفقتين معنى، لأنهما جميعًا في سبيل مجده وفخاره، كان ينظر أمامه، فيسرُّه منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله، ويلتفت وراءه، فيُطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يكنه الماضي في صدره لأولئك الرجال البواسل الذين قاتلوه فانتصروا عليه.

كان «فولتير» رجلًا وأكبر من رجل، كان وحده أمة كاملة، إنه

(١) وهى ترجمة خطبة خطبها «فكتور هيجو» فى باريس فى حفلة تأبين فولتير الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته، مع بعض تصرف.

عاهد نفسه على إنجاز عمل فأنجزه ولم يخلف وعده، وكأن الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه؛ فوجدت فولتير أصلبها عودًا، فاختارته للقيام بالعمل الذي قام به فأتمه.

إنا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسائل الاجتماعية، جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأي القرن التاسع عشر فيه، جئنا لنُكرم المجاهدين والعاملين المخلصين، اجتمعنا لنمهد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى إليها العلماء والعاملون، والصناع المجدّون، وجملة القول إننا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية، عاطفة السلام العام.

إنا نمجد السلام حبًا في المدنية، وحرصًا على رونقها وروائها، فإن السلام فضيلة المدنية والحرب رذيلتُها.

نحن في هذه الساعة العظيمة، في هذا الموقف الرهيب، نجثو على الركب، ونُعفّر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية، ونقول للعالم الذي يُنصت لسماع صوت فرنسا «لا قوة إلا قوة الضمير، ولا مجد إلا مجد الذكاء» هذا في سبيل العدل، وهذا في سبيل الحق.

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنساوية على هذا المثال. الشعب في المنزلة الدنيا، وفوق الشعب الدين والقضاء، هذا يمثله «القضاة» وذاك يمثله «الإكليروس».

أتدرون كيف كان الشعب؟ وكيف كان الدين؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد؟ كان الشعب جهلًا! والدين رياء! والقضاء ظلمًا!

إن كنتم في شك مما أقول فإني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعًا.

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١م وجد شاب مصلوبًا في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة «طولوز» فهاج الشعب ولغط «الإكليروس» وبحث القضاة، فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحرًا، فسُمي قتيلًا، وكان والده بريئًا، فسمي قاتلًا.

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتيًا ولأنه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكثلكة، إنها لجناية عظيمة جدًا ينكرها الدين، ويحيلها العقل، ولكن هان عليهم أمرها، ولم يحفلوا بالشريعتين: شريعة القلب، وشريعة العقل، فحكموا أن الشيخ الكبير قتل ولده الصغير.

هكذا قضى القضاء، وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها

في شهر مارس سنة ١٧٦٢م سيق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو «جان كالاس» ثم جُرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشُدت به أطرافه وتُرك رأسه متدليًا.

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتيل. كاهن يحمل الصليب، وجلاد يحمل القضيب، وقاض يحمل في صدره عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب.

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته، وتمشى قلبه في صدره، لينظر إلى الصليب في يد الكاهن، بل إلى القضيب في يد الجلاد.

رفع الجلاد القضيب، وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على أثرها صيحةً مؤلمة ثم أغمي عليه، فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالمنبهات فانتعش، فضربه الجلاد الضربة الأخرى فوق الذراع الآخر فعاد إلى صرخته وإغمائه فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان، فكأنما قتلوه قبل موته ثماني مرات.

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومدَّ إليه الصليب ليُقبله فحوّل وجهه عنه، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين، فأقبل الجلاد وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربةً ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية.

على هذه الصورة مات «جان كالاس».

وما هي إلا أيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحرًا، لا مقتولا فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ سهم القضاء.

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الأولى موعظة الشيخوخة.

بعد مضي ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الأولى، وجدوا في «إيفيل» في ليلة عاصفة صليبًا عتيقًا أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحًا فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون.

من أَلقى به من أَعلى السور؟ من أهانه؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس؟ من ذا الذي أجرم هذا الجرم العظيم؟

ربما عصفت به ريح، أو عبث به عابر طريق، أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم، لا.. لا.. كل ذلك لم يكن، لأن الدين أبى إلا أن يوجد مجرمًا.. هنالك أعلن مطران «أميان» براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئًا عن هذه الحادثة فكتمه.

إن الحرمان في الكثلكة جريمة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم، إلى الجهل العظيم، كان هذا الحرمان سببًا في أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما «لابار» والآخر «ديتالون» مرَّا على جسر «إيفيل» في تلك الليلة المشئومة يترنحان سكرًا، وينشدان نشيدًا عسكريًا، مرَّا بالجسر وأنشدا النشيد، فهما المجرمان، وكانت المحكمة مَقدسَ «إيفيل» ولم تكن بأقل عدلًا وإنصافًا من مجلس «الكابيتول» في «طولوز» فأمرت بالقبض على الرجلين، فاختفى «ديتالون» وقبض على «لابار».

وأسلم إلى القضاء، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر، فحكمت عليه محكمة إيفيل بالإعدام، وأيد حكمها برلمان باريس، فدنت الساعة المخيفة الهائلة.

لقد تفننوا في تعذيب «لابار» وإرهاقه ليكشفوا عن سر فعلته، وعن شركائه في جريمته، أي جريمة المرور على الجسر، وإنشاد النشيد.

لقد عذبوه عذابًا أليمًا، حتى أن الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أُغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه.

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني وهو يوم ٥ يونيو سنة ١٧٦٦م وجيء بالشاب المظلوم إلى ساحة «إيفيل» الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطرامًا، فأسمعوه نص الحكم، ثم بتروا يده، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا به في النار.

على هذه الصورة مات «الشيفاليه دي لابار» كما مات من قبله «جان كالاس».

أحزنك هذا المنظر يا فولتير، وآلم نفسك، وملك عليك شعورك ووجدانك، فصحت صيحة الرعب والجزع، فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك الخالد العظيم.

هنالك انبعثت نفسك إلى النزول في ميدان المجتمع الإنساني لتكف عادية الظالمين، وتقلم أظفار الوحوش الضارية، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه، وتنتصف منه للمستقبل، فانتصفت وانتصرت، وكنت من المحسنين.

فيا أيها الرجل العظيم: طبت حيًا وميتًا.

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتُها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء، يغدو إليها الإنسان لاهيًا، ويروح ساهيًا، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه، ولا يخفضها فيرى ما تحته.

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد، و «فرسايل» تتلألأ حسنًا وبهاء ورونقًا وماء، وظرفاء الشعراء مثل «سان أولاير» و«بوفلير» و«جنتيل برنار» لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل.

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع، بذلك القضيب الحديد، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد.

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفًا من قوى عظيمة هائلة، قوة البلاط، وقوة الأشراف، وقوة المال، وقوة الشعب المائج المتدفِّع، وقوة الحكومة التي كانت أسدًا على الرعية، ونعامة بين يدي الملك، تجثو أمامه خاضعة صاغرة، إلا أن جُثِيَّها كان على جُثة الشعب.. وقوة «الإكليروس» المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى.

تقدم فولتير وحده وأثار حربًا عوانًا على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة المخيفة ولم يره أكبر من أن ينخذل.. ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر.

أتدري ما كان سلاحه؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها.. وتسبق الصاعقة في انقضاضها.. ما كان له سلاح غير القلم.. فبالقلم حارب وبالقلم انتصر.

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوى، والصلاح والفساد، فتم على يديه الغلب للخير على الشر، وفاز فوزًا مبينًا.

كان «فولتير» قلبًا وعقلا.. كان له رقة الفتاة في غلالتها[1] وشدة الأسد في لبدته.

«فولتير» محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة، وأرغم أنف الكبرياء. وأذل عز الرؤساء، ورفع السوقي إلى حيث لا يصل إليه ظلم القاضي وتنطع الكاهن.

علَّم ومدَّن وهذَّب، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس، فلم تنكسر سورته، ولم تفتر عزيمته. بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية، والغضب بالاستخفاف، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة.

أقف هُنا قليلا إجلالا لابتسامة «فولتير».

«فولتير» هو الابتسامة، والابتسامة هي فولتير.

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب، وكذلك كان فولتير.. كان عقله ميزان أعماله، فما غلبه حتى الغضب للحق.

كنت تراه عابسًا مقطبا، فما هي إلا كرةُ الطرف حتى ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب.

يكاد يكون ابتسامه ضحكا، لولا حزن الحكيم، وهمُّ العاقل.

كان ابتسامه كبارقة السيف يرتاع لها الأعداء، ويرتاح لها الأولياء.

كان يبتسم للقوي فيُخجله بتهكمه واستخفافه، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه.

---

(١) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب.

فلنمجد تلك الابتسامة التي كانت أشعتها كأشعة الفجر، تمحو الظلام وتبعث الأنوار.

نعم الابتسام، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح، وكشف عن ظلمات التقليد.

إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزيَّنتها بالإخاء والمودة والحرية والمساواة، فنال العقل منزلته من الإجلال والإعظام، سواء أسكن القصر الكبير، أو الكوخ الحقير، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير، ونشر السلامُ أجنحته البيضاء على المجتمع الإنساني فقرّت السيوف في الأغماد، وهدأت الدماء في العروق، والأرواح في الأجسام، وكل ذلك بفضل ابتسامة فولتير، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء، والعفو عن الخاطئين، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامةً تتلألأ بين لألاء النجوم.

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنُكبرها كل الإكبار.

هل كان «فولتير» يحلم دائمًا فلا يستخف حلمه الغضب؟ كلا، بل كان يغضب أحيانًا في سبيل الحق.

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض، وإن الفلسفة هي الاعتدال وإظهار الحقائق واضحة بين مؤتلفات الأعمال والأقوال، ولكن أرى أن حب

الحق يجب أن يكون فى مرتبة الغلو حتى تهب عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالأقذاء والأقذار.

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله، أما الأولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل، لذلك يحب الناس القاضي العادل، والكاهن الصالح لأن الأول صورة العدل، والثاني مثال الرجاء، فإذا انقلب العدل ظلمًا، والأمل يأسًا، عافهما الإنسان ولوى وجهه عنهما، وقال للقاضي: «لا أحب قانونك» وللكاهن: «لا أعتقد بدعتك» وهناك يهب الفيلسوف الغيور غاضبًا، فيحاكم القضاء أمام العدل والكهنوت أمام الله، وكذلك فعل فولتير فكان من المحسنين.

إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيدًا إلا قليلا، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره، فهو كالشجرة تكون في نظر الناظر أطول فى الغابة الشجراء منها في التربة الجرداء، لأنها تكون فى منبتها ومستقرها، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة روسو وديدرو وبوفون وبورماشه ومونتسكيو، أولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علّموا الناس النظر في حقائق الأشياء، والتفكر الموصل إلى إتقان الأعمال، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل، فأجادوا وأفادوا.

مات أولئك القوم العظام، وهوت من أفقها كواكبهم، ولقد كانوا في حياتهم جسدًا وروحا، أما الجسد فقد طواه القبر، وأما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم.

أجل، إن الثورة روحهم، والمظهر الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم.

هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة، التي هي خاتمة الماضي، وفاتحة المستقبل.

إنك تراهم بعين بصيرتك، في كل مواقفها ووقائعها، إذا اخترقت أشعة العقل حجاب المسببات ونفذت إلى الأسباب نرى في نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفًا وراء دانتون، وروسو وراء روبسبير، وفولتير وراء ميرابو، ونجد أن أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة[1].

إن الكلمة الأخيرة التي أنطق بها في هذا الموقف العظيم، هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدّم بهدوء وسكون، وثبات ووقار.

قد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها، وهي الإخاء الإنساني والتعارف النفسي، فمن العبث أن تشغل القوة بعد ذلك مكانًا من هذا المجتمع، فإن فعلت كان أليق الأسماء بها الاستبداد.

إن المجتمع الإنساني أنكر على القوة حقها المزعوم، وضاق صدره بجرائمها وآثامها، فقاضاها بين يدي التمدن ووضع بين يديه جريدة المتهمين من الرؤساء والزعماء، وأتى بالتاريخ شاهدًا على دعواه، فقضى التمدن له عليها وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

---

(١) دانتون، وروبسبير، وميرابو أبطال الثورة الفرنساوية.

شف ثوب الرياء عما تحته، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فأصبح الأبطال والمجرمون في نظر الإنسان سواء.

هدم التمدن تلك القاعدة الفاسدة. وهي أن الجرم العظيم أصغر من الجرم الصغير، فأدرك الإنسان أن قتل الشعوب أكبر إثماً، وأعظم جريرة من قتل الأفراد، واستكبر أن يعتبر الحرب مجدًا وهو يعتبر السرقة عارًا، وبالجملة عرف أن الجريمة جريمة، حيث حلت، وفي أي مظهر ظهرت، وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئًا أن يسمى القيصر أو يُدعى الإمبراطور. ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تاج الملك، أو قلنسوة الإعدام!

فلنصرح بالحقيقة المقررة الواضحة، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار، إن الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود.

إن منظر الدماء والأشلاء أفظع منظر.

لا يُعقل أن يكون الشر طريق الخير، وأن يكون الموت وظيفة الحياة.

أيتها الأمهات الجالسات حولي خففن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاذ أكبادكن.

أتشقى المرأة فتلد، ويغرس الزارع فيكسو الأرض بساطها الأخضر، ويجهد العامل فيملأ الخزائن ذهبًا وفضة، ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال؟!

لا لا... إننا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا، وننكر أن الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها، وتنتقص من سرورها.

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء.

إن الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لم تزل باقية.

فلنذكر عند ذكر ملوك الحرب: فولتير وجان جاك وديدرو ومونتسكيو ملوك السلام، ولنوجِّه وجهتنا إلى تلك الروح العالية، إلى تلك الحياة العظيمة، إلى ذلك الدفين المقدس، إلى فولتير، ولنركع أمام قبره عسى أن يمدنا بروح منه، ويهدينا إلى حظيرة السلام، فإنه بعد مرور قرن على موته لم يزل في الأحياء الخالدين.

ولنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال: كفى كفى إنها همجية، إنها تشوه وجه المدنية الجميل.

إن أسلافنا من الفلاسفة هم رسل الحق إلى البشر. فلنضرع إليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها، ويُنادوا: إن الحياة ملك للإنسان، وعظيم عليه أن تسلب منه، وأن التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار.

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور، فلنطلبه بين ظلمات القبور

العلماء والجهلاء

لا تحسبن أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام، أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يريدون التفريق بينهما، وإنزالهما منازلهما، فالعلماء والجهلاء – إن دققت النظر– سواء لا فرق بينهما، إلا أن هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة، وأولئك يعلمونها مبعثرة، وأن هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يبينون.

ومن نظر إلى البصائر نظرًا نافذًا وجد أن المعاني الصحيحة، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضر، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياتيه المادية والمعنوية، يشترك في العلم بها الناس جميعا، عامتهم وخاصتهم، كبارهم وصغارهم، من نشأ تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل، لا سيل يتدفق من الخارج، ولأن المعلومات مكامنها في النفوس كمون النار في الزند، والقوة في المادة، وما وظيفة العلم إلا استثارتها من مكامنها، وبعثها من مراقدها.

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر وآية فضلهم، إلا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب، ولا قضية من قضايا الأخلاق التي تعدها من ذخائر

الأسفار ونفائس الأعلاق، إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة، ومذلة بين أيدي الغوغاء والأميين.

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خُيِّل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلامًا عجيبًا، أو معنى غريبًا.

وليست هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون أحاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون، أو أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل، بل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم، ويجمع لهم شتات المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأنس بأفكار تشابه أفكارهم، وآراء تشاكل آراءهم.

ولا أخشى بأسًا إن قلت: إن علم العامة أفضل من علم الخاصة، لأنه أولًا علم خالص من شائبة التكلف والتعمل، حتى إنك لتجد في بعض الأحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه، وما يترفع أضيق العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعل له شأنا، أو يقيم له وزنا، ولأنه يعلق بالنفس ويتغلغل بين طياتها تغلغلا تظهر آثاره على الجوارح. وكثيرا ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته، وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه، وإن كان صحيحًا ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء.

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ولا تنظر إليهم نظرًا يملأ قلبك رهبة ولا تغل في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب.

وإن في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه، وتفرقه مذاهبًا وشيعًا، وركوب كل فريق رأسه، وهيامه على وجهه، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى – ينشدون فلا يجدون ويجدُّون فلا يصلون – لدليلًا على أن الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات، وأن حقائق الأشياء وأسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده، ولم يمنحهم إلا بلة تزيدهم وجدًا كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقًا ما تذوقوا طعمها:

ضريبك في بني الدنيا كثير ... وعز الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا ... قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

جاءنى أمس من الإسكندرية هذا الكتاب

حضرة السيد المحترم:

لا تعجب إن رأيت إعجابي بك ظاهرًا في كل سطر من سطور كتابي هذا فإنما أنطق بلسان كثير من العقلاء، الذين يحبونك حبًا جمًا، ويعتقدون أنك فريد في أدبك، فريد في قلمك، فريد في تسامحك وتساهلك، لذلك أردنا أن نوجه إليك السؤال الآتي راجين منك الإجابة عنه:

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكمًا صارمًا فتنبذها وتحتقرها، ولا تحكم بمثل هذا الحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتهما واحدة؟

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه، والسلام.

«سائل»

أيها السائل الكريم

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقل، وعندي أنهم أصابوا في الأولى وأخطأوا في الأخرى.

تستطيع المرأة أن تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة، ولا تستطيع أن تجاريه في الأناة والرفق وامتلاك هوى النفس، والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب.

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار، وأن تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات، ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع، لأن بين جنبيها نفسًا غير نفسه، وهوى غير هواه، ولأن لها قلبًا صغيرًا لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير.

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه.. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها، فما وقفت معه في موقف إلا سقطت بين يديه عجزًا وضعفًا.. لأنه يعرف السبيل إلى قلبها.. ولا تعرف السبيل إلى عقله.

لا تعجب إن قلت لك: إن الذكاء غير العقل، فاللصوص والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء.. وليس بينهم عاقل واحد.. لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئًا.. وكثيرًا ما يكون الذكاء الشديد داعية الجنون، حتى إنك لا تكاد ترى ذكيا من الأذكياء، إلا وترى له في شئونه وأطواره أحوالا شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل.. ولا قاعدة من قواعد الطبيعة. وعندي أن أكثر ما يصيب النوابغ والأذكياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد إلى ضعف في عقولهم.. ونقص في تصوراتهم، وبعد. فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع.. وكثيرًا ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه إذا كان طائشًا أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن أو الغضب.

فما يغني المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويُمسك بيدها أن تعثر في جريانها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة.

لا بد أن سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن.. ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهن أن ينازعنني فيه مع شدة ذكائهن.. ولا في استطاعة أنصارهن من الرجال أن ينقضوه.. ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

لولا أن الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان.. وذلك الغلب.. ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب[1] ولا أن يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها، والخروج عليها.

القويّ يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان، وشأن الرجل مع المرأة.

الإنسان نوع من أنواع الحيوان، لم يكن في مبدأ خليقته خيرًا منها في شأن من شؤون الحياة، ولكنه كان أوفر منها عقلا وأوسع حيلة، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته، حتى أصبح سيد الحيوان فمدَّن المدن ومصَّر الأمصار، وشاد وبنى، وتأنق وترفه، ثم طرد صاحبه إلى تلال الرمال، ورءوس الجبال،

(١) الجنيب: المهر الذي يقاد إلى مهر آخر.

يأكل بعضه بعضًا، ويتفانى شقاء وجهلا، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد، والأبوة، والأمومة، والقومة والقعدة، والنومة واليقظة، ولكنه وجد في نفسه فضلا عليها فى قوة العقل والتدبير.. وكان ظالمًا خشن النفس قاسي القلب فأبى إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها، فتم له ما أراد.

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنت.. وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها أن ذنبها في الفسق المشترك بينه وبينها أكبر من ذنبه، وأن جنايتها ضعف جنايته فصدقت، وطلب منها أن تسلم إليه الأمر في تدبير شئونها والتصرف بأموالها فسلمت.. وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها معها، كما ينظر إليها هو بعين الإجلال والإعظام.

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونساؤه.. وملأ قلبها هولًا ورعبًا وأوسع نفسها تقريعًا وتأنيبًا من حيث لا تطير على الرجل شرارة واحدة من هذه النار المتأججة.. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة.. وما كان له أن يقصر في مجاملة نفسه ومحاباتها، لأنه شره طماع محب لذاته، ولا أن يعدل في القضاء في قضية هو الخصم فيها والحكم، لأنه ظالم جبار.

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل، لاستطاعت أن تحجبه في المنزل، وأن تتولى التصرف فى شأنه، وأن تعبث بعقله ما شاءت، فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه، وأن تنفذ إلى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة، وأن تحدثه فيصدق، وتأمره فيأتمر.. وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد.

لا أريد أن أقول: إن هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها، بل أريد أن أقول: إن هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر.. والحكم الجائر.

وجملة القول: إن حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم، ولو أنه أنصفها لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة.. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون، ولأن نساءه ساذجات بسيطات، يصدقن الرجال في أقوالهم، وينظرن إلى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم، فإن أردنا أن تنال المرأة حقها من الرجل، وأن تنتصف منه. فليس سبيلها إلي ذلك المغالبة والمصارعة. فإنها أضعف منه جسما وعقلًا. بل السبيل إليه أن نعلمها العلم لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها، وأن نعلمه كذلك ليستطيع أن يكون شخصًا كريمًا، وإنسانا رحيمًا.

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيًا إلى ترك ضلالة من الضلالات أو بدعة من البدع، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها، ولا يخبو أوارها، حتى تهلك، أو يهلك دونها.

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحها، بأقرب منالًا من سلب النفوس غرائزها وميولها.. ولا يضن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في مواقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب وذودًا عن العقائد.

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها، لأنهم يحاولون أن يرزءوها في ذخائر نفوسها، ويفجعوها في أعلاق قلوبها.

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها أو يموتوا في طريقها.

الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة أو جهلة أو زنادقة أو ملحدين، أو ضالين أو كافرين، لأن ذلك ما لا بد أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمدا ﷺ عاش بين أعدائه ساحرًا كذابًا، فلما مات مات سيد المرسلين، وأن الإمام الغزالي عاش بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام، وأن ابن رشد عاش ذليلًا مهانًا حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف الشرق؛ فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتًا.

سيقول كثير من الناس: وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظنًا، ولا تسمع له قولًا، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء فأسكت ألسنتهم عن قول الحق، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان، وتبلدت المدارك، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس، ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك يغشى العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدًا رويدًا. فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نورًا، والألم لذة وسرورًا.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان، لأن الحق وجود، والباطل عدم، وإنما يصرعه جهل العلماء بقوته، ويأسهم من غلبته، وإغفالهم النداء به، والدعاء إليه.

محال أن يهدم بناء الباطل فرد في عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون؛ في عصور متعددة، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقض الثاني منه حجرًا، والثالث آخر، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر.

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فرارًا من إزعاج المريض، أو خوفًا من صياحه وعويله، أو اتقاءً لسبه وشتمه، فإنه سيكون غدًا أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه.

وبعد: فقليل أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيبًا إليها إلا إذا كان خائنًا في دعوته، سالكا سبيل الرياء والمداهنة في دعوته، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء.

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة[1] الأرض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضرًا، أو يلاقي في طريقها شرًا.

(١) الكظة: البطنة.

رأيت الدعاة في هذه الأمة أربعة: رجل يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر، ورجل يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيرًا له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده؛ ورجل لا يعرف حقًا ولا باطلا، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل، والضار والنافع، في موقف واحد. فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه: مكَرَّ مفَرِّ مُقْبِل مُدْبرِ مَعًا.

ورجل يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله، فهو عدوَّها في ثياب صديقها؛ لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد. فليت شعري، من أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

ما أعظم شقاء هذه الأمة وأَشد بلاءها؛ فقد أصبح دعاتها في حاجة إلى دعاة، ينيرون لهم طريق الدعوة، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها. فليت شعري متى يتعلمون، ثم متى يرشدون؟

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر، وأحسبني قادرا على الاستمساك في كل رزء مهما جل شأنه وعظم وقعه، فلما مات مصطفى كامل علمت أن من الرزايا ما لا يطاق تجرعه، ولا يستطاع احتماله.

كل يوم نرى الموت، ولا نزال نعد الموت غريبا، هيهات! لا غرابة في الموت، ولكن الغريب موت الغريب.

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها، وأكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل»، دهشنا وجزعنا؛ لأنه كان غريبا في حياته، فأحرى أن يكون غريبا في مماته.

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت، وما كنا نعرفه قبل ذلك؛ لأننا ما كنا نرى إلا أمواتا ينقلون من ظهر الأرض إلى باطنها، أما مصطفى كامل فكان حيا حياة حقيقية، فكان موته كذلك.

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئا إذا بذلوا لذلك الفقيد العظيم قطرة من الدمع، أو قطرة من المداد، فإنه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة قطرة حتى أفناه ومضى لسبيله، فشتان ما بين صنيعهم وصنيعه!

أين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم، أو قطرات

المداد التي يرصع بها الكتاب أقلامهم، من قطرات الحياة التي أراقها مصطفى كامل في سبيل وطنه وأمته؟!

كان «مصطفى كامل» سراجا كبير الشعلة، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكا، وتحترق ذبالته فينطفئ نوره.

كان مصطفى كامل نشطا سريع الحركة، فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة.

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون، فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف يصيحون، فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهوري، ولولاه ما كانوا يعرفون.

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن بها، فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتير وهوجو وغاريبالدي وواشنطون، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيرا عن تربة أوروبا لو تعهدها الزارعون.

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على أوتار القلوب، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائي، فهي تتحرك بحركته، وتسكن بسكونه.

ما كان «مصطفى كامل» أذكى الناس، ولا أعلم الناس، ولا أعقل الناس، ولكنه كان أشجع الناس.

كان يفكر فيقتنع، فيصمم، فيمضي، فلا ينثني حتى الموت. كان يخطئ أحيانا في اتخاذ الوسائل إلى آماله، ولكنه ما كان يتمهل

كثيرا ليتبين أي طريق يأخذ، ولا أي مسلك يسلك. مخافة أن تفتر همته بين الأخذ والرد، فيكون خطؤه في قعوده أكثر من خطئه في جهاده.

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش، ويقولون له: إنك مخطئ أو مضر، أو غير محسن، أو غير عظيم، فما كان يصدق من ذلك شيئا، كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه وخصومه وأولياؤه أنه رجل عظيم.

ما كان «مصطفى كامل» من الأغنياء، ولا من بيت الملك، وما كان آمرا ولا ناهيا، ولا رافعا ولا خافضا، ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته ما لم يلق واحد من هؤلاء، ولا فضل لهم في ذلك عليه، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول، ويجلون المناقب والمزايا.

فيا أيها القارئ الكريم: إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلا، فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والإقدام.

ويا أيها المصري: كن أحرص الناس على وطنيتك، ولا تبغ بها بدلا من عرض الدنيا وزخرفها.. فإنك إن فعلت كنت «مصطفى كامل».

ويا أيها الإنسان: أقدم على عظائم الأمور ولا تلتفت يمنة ولا يسرة، واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والمنتقدين والمتهكمين، فإنهم سيعترفون بفضلك ويسمونك عظيما، كما سموا «مصطفى كامل».

ويا أيها الراحل المودع، إن بين جنبيَّ لوعة تعتلج لفراقك لا أعرف سبيلا إلى التعبير عنها إلا القلم.

هأنذا أعالج القلم علاجا شديدا على أن يسعفني بحاجتي، وهأنذا أقلبه ظهرا لبطن وأكثر من استمداده وأضغط به على القرطاس ضغطا شديدا، فلا أراه يغني عني شيئا.

خطر لي أن الحزن في سويداء القلب، وأنه بعيد الغور لا تبلغ إليه هذه الأداة القصيرة التي في يدي فاستبدلت بها أداة أطول منها، فكان حكمها حكم سابقتها.

إذن كيف أعبِّر عن وجدي عليك أيها الفقيد الكريم، وقد خرس القلم وعي اللسان؟!

الآن عرفت السبيل، ووصلت إلى ما أريد.

أنت الآن في عالم الأرواح.. وقد انكشف لك كل شيء من أسرار النفوس ودخائل القلوب، ولا بد أن يكون قد انكشف لك ما يكن قلبي من الوجد عليك، فما حاجتي بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان.

أيها الراحل المودع: طبت حيا وميتا، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك، لولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين، ولولا مماتك ما عرف العالم بأجمعه أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة، وهي حب الوطن، وحب رجاله العاملين.

دمعة على الإسلام

كتب إليَّ كاتب من علماء الهند كتابا يقول فيه إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثا بلغة «التاميل»، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس، موضوعه: تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني وذكر فضائله وكراماته، فرأى فيه من بين الصفات والألقاب التي وصف بها السيد عبد القادر ولقبه بها صفات وألقابا هي أجدر بمقام الألوهية منها بمقام النبوة.. فضلا عن مقام الولاية، كقوله: «سيد السموات والأرض»، و«النفاع الضرار»، و«المتصرف في الأكوان»، و«المطلع على أسرار الخليقة»، و«محيي الموتى»، و«مبرئ الأعمى والأبرص والأكمه»، و«أمره من أمر الله»، و«ماحي الذنوب»، و«دافع البلاء»، و«الرافع الواضع»، و«صاحب الشريعة»، و«صاحب الوجود التام» إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب!

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك المؤلف فصلا يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني، يقول فيه: أول ما يجب على الزائر: يتوضأ وضوءا سابغا، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار، ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة.. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول:

«يا صاحب الثقلين.. أغثني، وأمدني بقضاء حاجتي.. وتفريج كربتي.. أغثني يا محيي الدين عبد القادر.. أغثني يا ولي عبد

القادر.. أغثني يا سلطان عبد القادر.. أغثني يا بادشاه عبد القادر.. أغثني يا خوجة عبد القادر».

«يا حضرة الغوث الصمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة».

ويقول الكاتب أيضا: إن في بلدة ناقور في الهند قبرا يسمى «شاه الحميد»، وهو أحد أولاد السيد عبد القادر – كما يزعمون –، وإن الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله.. وإن في كل بلدة وقرية من بلدان الهند وقراها مزارا يمثل مزار السيد عبد القادر.. فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد، والملجأ الذي يلجئون في حاجاتهم وشدائدهم إليه.. وينفقون من الأموال على خدمته وسدنته.. وفي موالده وحفلاته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعا لصاروا أغنياء.

هذا ما كتبه إليَّ ذلك الكاتب.. ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني.. فما أبصر مما حولي شيئا.. حزنا وأسفا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه.. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها.. ولا شأن له بها.

أي عين يجمل بها أن تستبقي من شئونها قطرة لا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر، منظر أولئك المسلمين وهم رُكَّع سُجَّد على أعتاب

قبر ميت؟! ربما كان بينهم من هو خير منه في حياته، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته!

أي قلب يستطيع أن يستقر بين جنبيْ صاحبه ساعة واحدة فلا يخفق وجدا أو يطير جزعا حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر المشركين إشراكا بالله، وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات!

لمَ ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين.. ولمَ يحملون لهم في صَدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن، وعلام يحَاربونهم؟ وفيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ولم يغرقوا فيه إغراقهم!؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة، ولكنهم كأنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل. فيتأولون فيه ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة، أكثرها جذوع أشجار، وجثث أموات، وقطع أحجار من حيث لا يشعرون!

كثيرا ما يضمر الإنسان في نفسه أمرا وهو لا يشعر به، وكثيرا ما تشتمل نفسه على عقيدة وهو لا يحس باشتمال نفسه عليها، ولا أرى مثلا لذلك أقرب من المسلمين الذين يلجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب قالوا: «إنا لا نعبدهم وإنما نتوسل بهم إلى الله.» كأنهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر من

مظاهر الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين إليه يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل. وقد ترك الإسلام بسر عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده في سلطانه: «لا تغل في تقدير نفسك، ولا تخرج عن دائرتك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله».

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد. أما اليوم، وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى، فقد ذلت رقابهم، وخضعت رءوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما

أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإن طلوع الشمس من مغربها وانصباب ماء النهر في منبعه أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني جل جلاله: «أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات».

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواما يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريا، فإذا نزلت بهم جائحة وألمت بهم ملمة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعو لهذه الملمة؟ أأدعو علماء مصر الذين يتهافتون على يوم «الكنسة[1]» تهافت الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة، وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام، وأحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية؟ أم علماء العجم، وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام؟ أم علماء الهند، وبينهم مثل مؤلف ذلك الكتاب.

يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها وقلنا: «إن العامي أقصر نظرا وأضعف إدراكا من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والأضرحة والقبور، فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرءون صفاته ونعوته

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه.

وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل: ٦٥]، وقوله مخاطبا نبيه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[سورة الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[سورة الأنفال: ١٧].

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم: «كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.» فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبرا أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أن أحدا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته يسأله قضاء حاجة أو تفريج كربة؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثا ولعبا أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد.

والله ما جهلتم شيئا من هذا، ولكنكم آثرتم الدنيا على الآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاص أمركم، وسلط عليكم أعداءكم، يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.

السياسة

حضرة السيد الفاضل:

ما لك لا تكثر من الكتابة في الشئون السياسية إكثارك منها في الشئون الأخلاقية والاجتماعية؟ وكيف يضيق بالسياسة قلمك وقد وسع كل شيء؟ فاكتب لنا في السياسة، فأمتك تحب أن تراك سياسيا، والسلام.

أيها الكاتب:

يعلم الله أني أبغض السياسة وأهلها بغضي للكذب والغش والخيانة والغدر.

أنا لا أحب أن أكون سياسيا؛ لأني لا أحب أن أكون جلادا لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد، وأولئك يقتلون الأمم والشعوب.

هل السياسي إلا رجل عرفت أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلبا، ولا أكثر كيدا فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة وسلبها ما وهبها الله من الحسنات وأجزل لها من الخيرات؟

أليس أكبر السياسيين مقاما وأعظمهم فخرا وأسيرهم ذكرا ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها من أشلاء القتلى، ونقطها من قطرات الدماء؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيا إلا إذا كان كاذبا في أقواله وأفعاله، يبطن ما لا يظهر، ويظهر ما لا يبطن، ويبسم في مواطن البكاء، ويبكي في مواطن الابتسام؟

أيستطيع الرجل أن يكون سياسيا إلا إذا عرف أن بين جنبيه قلبا متحجرا لا يقلقه بؤس البائسين ولا تزعجه نكبات المنكوبين؟

كثيرا ما يسرق السارق فإذا قضى مأربه رفع يده متضرعا إلى الله أن يرزقه المال حلالا حتى لا يتناوله حراما، وكثيرا ما يقتل القاتل فإذا فرغ من أمره جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثكلى على وحيدها، أما السياسي فلا يرى يوما في حياته أسعد من اليوم الذي يعلم فيه أن قد تم له تدبيره في إهلاك شعب وإفقار أمة، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره – كما يسميه هو – أو في يوم جنايته – كما أسميه أنا – يسمع هتاف الهاتفين مطمئن القلب، مثلج الصدر، حتى ليخيل إليه أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المحلق فرحا وسرورا.

يقولون: «إن السياسة ليست علما من العلوم التي يتعلمها الإنسان في مدرسة أو يدرسها في كتاب، وإنما هي مجموعة أفكار قانونها التجارب، وقاعدتها العمل.» أتدري لماذا؟

لأن العلماء أشرف من أن يُدوِّنوا المكايد والحيل في كتاب، والمدارس أجلُّ من أن تجعل بجانب دروس الأخلاق والآداب دروس الأكاذيب والأباطيل، وإلا فكل طائفة من طوائف المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت قانون علم يؤلفها ويجمع بين أشتاتها.

هؤلاء هم السياسيون، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم في الأعم الأغلب من شئونهم وأطوارهم، فهل تظن أيها الكاتب أن رجلا نصب نفسه لنصرة الحقيقة والأخذ بضبعي الفضيلة لاستنقاذها من بين مخالب الرذيلة، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الأخلاق.. وملأ برسائله فضاء الأرض والسماء بكاءً على الضعفاء والمساكين والمظلومين والمضطهدين، يستطيع أن يكون سياسيا، أو محاسبا للسياسيين؟

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا: «إن الكتاب يعرف بعنوانه.. فإني لم أر بين كتب التاريخ أكذب من كتاب «بدائع الزهور»، ولا أعذب من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب «جواهر الأدب»، ولا أرق من اسمه، كما لم أر بين الشعراء أعذب اسما وأحط شعرا من «ابن مليك»، «وابن النبيه»، و«الشاب الظريف».

لقد كثر الاختلاف بين العناوين، وبين الكتب حتى كدنا نقول: «إن العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها، وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها، وإن العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل.»

الأتقياء:

لولا خداع العناوين ما سمينا صالحا تقيا كل من حرك سبحته وأطال لحيته ووسع جبته وكور عمامته، ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان الأبيض كتابا أسود الصفحات، كثير السقطات، وأن تحت هذا الستر الحريري الرقيق نفسا سوداء مظلمة لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة، ولا تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان.

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله أو في سبيل الجماعة من ذات نفسه أو ذات يده ما يشق على مثله الجود بمثله، أما

الجود بالشفاه للهمهمة والأنامل للمسبحة فعمل لا يتكلف صاحبه له أكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه وتحريك هدبيه، وهل خلقت الشفاه إلا للتحريك، والأنامل إلا للتقليب؟

إن للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فإن بذل الضنين بماله ماله في مواقف الرحمة والشفقة، والشحيح بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه، والذب عن عشيرته وقومه، وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات النفس ومقاومة نزواتها، فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب، فأهون بهمهمته ودمدمته، ومسواكه ومسبحته، وهو بعنوان المنافق الكاذب أحرى منه بعنوان التقي الصالح:

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[سورة العنكبوت:٢]

الوطنيون:

كنا وكان الرجل لا يبلغ ما يشتهيه من رتبة الوطنية إلا إذا قام فى أمته مقامًا محمودًا يخاطر فيه بإحدى جوهرتيه ليدفع عنها خطبا مقبلا أو ينقذها من بلاء محيط. فإما بلغ في هجرته الغاية التي يريدها . و إما هلك من دونها هلاكا لا تؤلم نفسه صدمته. ولا غضاضته. لأنه مخلص. وحسب المخلص جزاء له على إخلاصه أنه وفى دينه الذي كان يثقل ظهره وكفى . فأصبحنا وليس بين

المرء و بين نيل ألقاب الوطنية الأولى وشاراتها الفضلى. إلا صرخة عالية يصرخها في أحد المجامع أو كلمة تافهة يكتبها في إحدى الصحف حتى تقام له الحفلات كما تقام لعظماء الرجال . وتمد إليه الأصابع كما تمد للقواد الأبطال. وربما كانت صرخة ذلك الصارخ جنة تمثلت في رأسه تمثل النهيق في رأس الحمار. فلما حان حينها عطس بها في ذلك المجمع الذي صادفه في طريقه لينفس عن نفسه. و يفرج من كربته، وربما كانت كلمة ذلك الكاتب نغمة من نغمات السؤال التي يترنم بها المتسولون. أو رقية من رقي المخرقين التي يهمهمون بها استنداءً للأكف واستدرارًا لحسنات المحسنين.

أعجبُ ما يعجب له المرء في هذه الأمة أنها لا تصدق الرجل المستور إذا ادعي على آخر بفلس أو سحتوت حتى تطالبه بالشهود العدول والصكوك المؤكدة والأيمان المحرجة. فإذا قام بين يديها من لا تعرف له عدلا في سيرته. ولا صدقا في قوله، ولا إخلاصا في عمله. فادَّعى الوطنية لنفسه والوطنية أثمن من الجوهر المنتقى واللؤلؤ المكنون حكمت له بصحة دعواه في قضيته حكم القضاة الظالمين . بغير بينة ولا يمين.

لولا خداع العناوين لوجدنا بين التجار الأمناء الذين يخدمون أمتهم بالصدق في القول والأمانة والعمل. والموظفين الشرفاء الأعفاء الذين لا يحابون ولا يصانعون. والحكام العادلين المخلصين لله وللأمة في السر والعلن. والزارعين المستقيمين. والصناع المجدين.

والأكارين المستضعفين. من هو أولى بلقب الوطنية من أولئك الصارخين المتهوسين. والكاتبين المخادعين.

الأمجاد:

يقولون: «إن الولد سر أبيه، ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتسم فيها صورته، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته وماهيته. وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد، فأعظموا شأن الرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في النسب يتصل أولها بعظيم من عظماء النفوس، أو شريف من شرفاء الأخلاق.

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ويتوسعون في معناه حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا، والسفاحين الذين يسمونهم قوادا، واللصوص الذين يسمونهم وجهاء، فساقهم الخطأ في فهم الشرف إلى الخطأ في فهم المجد، فسموا ماجدا كل من ولد في فراش ملك وإن كان الحاكم بأمر الله، أو أميرا وإن كان الحجاج، أو وزيرا وإن كان ابن الزيات، أو قائدا وإن كان تيمورلنك، أو غنيا وإن كان قارون.

لا مجد إلا مجد العلم، ولا شرف إلا شرف التقوى، ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية البائسة رحمة بها وحنانا عليها.

أولئك هم الأمجاد، وأولئك الذين يفخر الفاخرون بالاتصال بهم والانتماء إليهم، وأولئك هم المفلحون.

الأغنياء:

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض وراء لقمة يتبلغون بها أو خرقة يتقون بخيوطها البالية ما يتقون من لفحة الرمضاء، وهبة النكباء، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاء ونحيبا حول صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوي الأفاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة، وتحت الشمس المحرقة، أسوأ حالا، ولا أنكد عيشا، ولا أكثر عناء، من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس أغنياء.

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير، ويجلس كما يجلس، وينام كما ينام، ويتشهى كما يتشهى، حتى لتكاد تثب أمعاؤه من جوفه، وتسيل أحشاؤه من فمه شوقا إلى ما حرم على نفسه من شهوات العيش وملذاته، ويستن[1] استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله حتى تنبهر أنفاسه، وتتخاذل أوصاله، حتى لو تخيل أن نجوم السماء دنانير منثورة لطار إليها بغير جناح فسقط هاويا، أو أن في بطن الأرض كنزا مذخورا لتمنى أن لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعه فأصبح من الهالكين.

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع، ولا تقف به نفسه عند مطمع.

(١) استن الجواد: عدا عدوا شديدا..

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين!

المجرمون:

حضرت مجلسا من مجالس الأحكام حكم فيه قاض مرتش على متهم سرق رغيفا، فوضعت يميني على فمي؛ مخافة أن يخرج أمر نفسي من يدي فأهتف صارخا لما ألمّ بقلبي من الرعب والفزع صرخة تدوي بها جوانب القاعة دوي الموج الثائر في البحر الزاخر، قائلا: «مهلا، رويدا أيها الحاكم الظالم، فأنت إلى قاض عادل تقف بين يديه أحوج منك إلى كرسي فخم تجلس عليه، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماثل بين يديك لبت وأعلاكما الأسفل.

إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين دينارا، فلم ترتش إلا لأنك شره طماع! وهذا السارق لم يسرق ذلك الرغيف إلا لأنه جائع ملتاع، ولو ملك مما تملك ثلاثين درهما ما فعل فعلته التي فعل، فأنت مجرم إلا أنك في وشاح شريف، وهو شريف إلا أنه في شملة مجرم.»

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين!

رب نفس بين جدران السجون أطهر قلبا، وأنقى ردنا وأبيض عرضا من مثلها بين جدران القصور، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها المقدار الذي لا مفر من حكمه إلى وقفة فوق أعواد المشنقة كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حبالة

ماله لخراب البيوت العامرة، وإطفاء النجوم الزاهرة، أو ذلك القائد الذي يسفك في مواقفه دم مائة ألف أو يزيدون في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع، والفخر الموضوع، أو ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للحملة على أمة مستضعفة آمنة في مرقدها سعيدة في نفسها، فيستعبد أحرارها، ويستذل أعزاءها، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها، وسعادتها وهنائها.

المتمدينون:

ليس بين المصري وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصري، أو الرجل المتمدين إلا أن يصقل جبهته، ويصفف طرته، ويفتح فمه للابتسام المتصنع، ويقوس يده للسلام المتعمل، ويستكثر في حديثه من ذكر المدنية الغربية وشئونها، وسرد أسماء نسائها ورجالها، وطرفها ونوادرها، ويستحسن ما تستحسنه، وإن كان البراز والانتحار، ويستطرف ما تستطرفه وإن كان الزندقة والإلحاد، وربما زاد على ذلك شيئا من العلم بفلسفة الميكروبات، ونظرية البالونات، ثم لا يحول بعد ذلك تمدينه بينه وبين أن يكون فاسقا ينتهك الحرمات، أو مدمنا يترامى على أعتاب الحانات، أو أحمق لا يصفح عن ذنب ولا يصانع في هفوة، ولا يعفو عن سيئة، أو سفيها يشتم حتى أميره وسلطانه، ووالده وأستاذه، أو وقاح الوجه لا يستحيي لمكرمة ولا يغضي لمروءة، أو شحيحا لا يشرك صاحبه في مطعم ولا مشرب، ولا يفتح بابه لضيف زائر أو طارق حائر.

إن كان حقا ما يقولون من أن التمدين يصقل الطباع الخشنة، ويقوم الألسنة المعوجة، ويهذب النفوس الجافية، ويوسع الصدور الحرجة، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون.

لو كان بي أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الإنساني والقضاء على شروره وآثامه لما حركت يدا، ولا جردت قلما؛ لأني أعلم كما يعلم الناس جميعا أن طلب المحال عثرة من عثرات النفوس، وضلة من ضلالات العقول، ولكنني أطلب مطلبا واحدا لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه: أن يهذبوا قليلا من هذه المصطلحات التي أنسوا بها، والعناوين التي جمدوا عليها، فلا يسمون المنافق تقيا، ولا المخادع وطنيا، ولا المتمجد ماجدا، ولا البخيل غنيا ولا المفلوك مجرما، ولا المتوحش متمدينا، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه، ولا يستمر مسيء في إساءته.

الإغراق:

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتا لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

يسمع السامع أن زيدا ملك كريم، ثم يسمع أنه شيطان رجيم، فيخرج منه صفر اليدين، لا يعلم أين مكانه من هذين الطرفين.

يقولون: «إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس وضعوا في سقف غرفة قطعة من المغناطيس، وفي أرضها قطعة أخرى، ثم

يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تترجح بين هذين الجاذبين.»

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين اضطراب الحديدة في أيدي المشعوذين.

الحقيقة بين الكاذب والكاذب، كالحبل بين الجاذب والجاذب، كلاهما ينتهي به الأمر إلى الانقطاع.

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص أنه جالس على كرسي القضاء، وأن الناس سيسألونه عما قال كما يسألون القاضي عما حكم، ما طاش سهمه في حكمه، ولا ركب متن الغلو في تقديره.

كما أنه يجب على القاضي أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها، وألا يعلو به فوق قدره، ولا ينزل به دون منزلته.

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ الماضي متناقضات الأحكام على الأشخاص، وليس بينهم من لم يتمن أن يكون في موضع أولئك المؤرخين حتى لا يغلو غلوهم، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم.

أيها الكتاب المحزونون: لا يحزنكم ما كان، فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الماضي فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الحاضر، كما أن للماضي مستقبلا

وهو حاضركم هذا، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل يحاسبكم فيه رجاله على هفواتكم في أحكامكم، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم وتطرفهم في آرائهم.

إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كل كاتب عندكم أكتب الكُتَّاب، وكل شاعر أشعر الشعراء، وكل مؤلف أعلم العلماء، وكل خطيب رئيس الأمة، وكل فقيه إمام الدين، فأين الفاضل والمفضول؟ وأين الرئيس والمرءوس؟ وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو، ويكون عمرو غدا أفضل منه؟ وأين ملكة التمييز التي وهبها الله لكم لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم؟ وهل بلغ التفاوت بين عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس، وفي نظر البعض الآخر شر الناس؟!

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد عن نفسي ساعة من الزمان، فتخيلت كأني رجل من رجال العصور الآتية، وأني ذهبت إلى دار من دور الكتب القديمة لأفتش فيها عن تاريخ عظيم من عظماء عصركم، فقرأت ما كتبتموه عنه في مؤلفاتكم وصحفكم، فرأيته تارة عظيما وأخرى حقيرا، ومرة شريفا ومرة وضيعا، ورأيته عالما وجاهلا، وذكيا وغبيا، وعاقلا وممرورا[1] في آن واحد،

(١) المرور: المصاب بخبل في عقله.

فخرجت أضل مما دخلت، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل؛ أي أنه ذكر بالغ من بني آدم!

أيها القوم: إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالا عادلين في أحكامكم وآرائكم إلا إذا أصلحتم نفوسكم قبل ذلك، وتعلمتم كيف تستطيعون أن تتجردوا عن أهوائكم وأغراضكم قبل أن تمسكوا أقلامكم.

أيها القوم، إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين فكونوا راحمين، فارحموا أنفسكم وأعفوها من الدخول في مأزق أنتم عاجزون عنه، فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات.

اللقيطة

مرَّ عظيم من عظماء هذه المدينة بزقاق من أزقة الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشتاء ضرير نجُمها. حالكٍ ظلامُها. فرأى تحت جدارٍ متهدم فتاةً صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء[1] وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاءً للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود، وليس في يدها ما تتقيه به إلا أسمال تتراءى مزقها[2] فوق جسمها العاري كأنها آثار السياط فوق أجسام المستعبدين في عهود الاستبداد.

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمه مناظر البؤس، وتزعج نفسه مواقف الشقاء، ثم تقدم إليها وهز يدها برفق، فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة، وهمت بالفرار من بين يديه وهي تصيح: «لا أعود لا أعود!» فلم يزل يمسحها[3] ويروضها حتى هدأ روعها، وعاد إليها رشدها، وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه، فنظرت إليه نظرة هادئة مطمئنة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان، وأفانين الأشجان.

---

(١) القرفصاء: أن يحتبي الرجل بيديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس.

(٢) المزق: القطع.

(٣) مسحه: أمر يده عليه.

– ما اسمك أيتها الفتاة؟

– لا أعلم يا سيدي!

– بماذا ينادونك؟

– يدعونني اللقيطة.

– وهل أنت لقيطة كما يقولون؟

– «نعم يا سيدي؛ لأني لا أعرف لي أبًا ولا أمًا في الأحياء ولا في الأموات، سوى رجل يتولى شأني ويضمني في منزله، وكنت أحسبه أبي، فيمتلئ قلبي سرورًا به وعطفًا عليه، فلما رأيت أنه يعذبني عذابًا أليمًا ويحمِّلني من آلام الحياة وأسقامها ما لا يحمِّله الآباء أبناءهم علمت أني وحيدة في هذا العالم، وفهمت معنى الكلمة التي يناديني بها، فألمَّ بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به، وكنت كلما مشيت في الطريق ورأيت فتاة صغيرة سألتها: «ألك أم؟» فتجيبني: «نعم»، ثم تقص عليَّ من قصص عطف أمها عليها ورأفتها بها ما يزيدني همًّا ويملأ قلبي يأسا، حتى كان يخيَّل إليَّ أنني أذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنبا عاقبني الله عليه بهذا الوجود. بيد أني صبرت على هذا الرجل، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق إبقاءً على نفسي، وضنًّا بحياتي أن تغتالها غوائل الدهر. وكان كلما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه اشتط في ظلمي ولؤم في معاملتي، حتى صار يضربني ضربًا شديدًا كلما عدت إليه عشاءً بأقل من الجعل الذي قدَّر عليَّ جمعه في كل

يوم. وما زلت أصابره برهة من الزمان حتى جاءني هذه الليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب، فقد حاول أن يسلب من بين جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناء الحياة ونعيمها سواها، فلم أر لي بدًّا من أن أفر من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيث لا يشعر بمكاني، وما زلت أمشي على غير هدى لا أعرف لي مذهبا ولا مضطربا حتى أويت إلى هذا الزقاق كما تراني، فهل لك يا سيدي أن تحسن إليَّ كما أحسن الله إليك، وأن تبتاع لي رغيفا من الخبز أتبلغ به، فقد مر بي يومان لم أذق فيهما طعاما ولا شرابا؟»

سمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة فما استقبلها إلا بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهى سلكه، ثم أخذ بيدها ومشى بها صامتا واجما لا يكاد يستفيق شهيقا وزفيرا حتى بلغ منزله، وهناك صنع بها صنع الكريم بأهله، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمنِّي نفسها بالوشل القليل منه، وما هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في قصر ذلك الرجل العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجها، وأكرمهن أخلاقا، وأرقَّهن شمائل، وأكملهن آدابا، يَعرفها كلُّ من عرف صاحب القصر أنها ابنة قريب له مات عنها، وخلفها يتيمة، فكان إلى هذا القصر مصيرها.

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي تربين التربية الحديثة التي يسمونها «التربية العصرية» ويريدون منها «التربية

الإفرنجية». فكان كل ما حصلت عليه من العلوم والمعارف، الفنون الآتية:

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي، وكلبها الرومي.

(٢) الغرام بمطالعة الروايات الغرامية.

(٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للعقول.

(٤) الكبرياء والعظمة واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها.

(٥) الأثرة وحب الذات حبا يملأ قلبها غيرة وحسدا، حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفا من أوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة الشريفة أن هذه الفتاة اللقيطة قد أصبحت تقاسمها قلب أبيها وقلوب الزائرات من النساء بما وهبها الله من جمال الخلق وجمال الخلق، فأضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضمره أمثالها من اللواتي تربين ونهجن في سبل الحياة منهجها، فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها، وتكلف بتبكيتها وتأنيبها، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاءً لسيدها وولي نعمتها، وترفعا عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات الصغيرة، حتى حدثت ذات يوم الحادثة:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي، فبينما هو صاعد على سلم القصر إذ عثر برقعة ملقاة فتناولها، فقرأ هذه الكلمة:

سيدتي:

أنا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة.

«حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة البطاقة حتى دارت به الأرض الفضاء، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم أطار أم لا يزال في مكانه، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألمَّ بنفسه من الحزن والقلق، فقال: «لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة، ومن الظلم أن أتهم ابنتي قبل أن أعلم الحقيقة.» فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة، فرجع أدراجه، وما زال يترفق في مشيته، وينتقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة، حتى وصل إلى شجرة اللقاء، فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه، وما أضمر له الغيب في طياته.

لم تكن الرسالة رسالة اللقيطة، بل رسالة الشريفة، وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها أمام مرآتها، تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بمواقف اللقاء، كانت الأولى نائمة في غرفتها نوما هادئا مطمئنا لا تزعجه زورة الطيف، ولا تروعه أحلام الشباب، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت، ثم رابها موقفه؛ فأطلت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء، وعلمت أن سيدها سيقف على سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانه

زمنا طويلا، وأنه لا بد قاتل نفسه في ذلك الموقف حزنا ويأسا، فعناها من أمره ما عناها، ثم أطرقت برأسها لحظة قصيرة تتلمس وجه الحيلة في هذه النازلة، وتطلب المخرج منها، ثم رفعت رأسها فإذا هى مصممة على ما يأتى:

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت والتفتت إليها، وقالت لها: «ماذا تريدين مني؟ أتتجسسين عليَّ؟» قالت لها: «لا يا سيدتي.» وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها، فأسقط في يدها، وعلمت أن أباها قد وقف على سرها، فقالت لها: «لا تزعجي نفسك، فإن أباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب، فعودي إلى غرفتك وسأذهب إلىَّ الموعد مكانك، حتى إذا رآني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في أمرك.

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة، وهنالك، برز الرجل من مكمنه واقترب منها حتى عرفها، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته، ثم قال لها:

أيتها الفتاة: إني أحسنت إليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأت إليَّ بما فعلت حتى كدت أهلك الليلة حزنا وغما، وألصق بابنتي ذنبك، وأحمل عليها عارك، فاخرجي من منزلي، فاللئيم ليس أهلا للإحسان!

فخرجت خائبة تتعثر في أذيالها حتى وصلت إلى شاطئ النهر،

وهنالك أخرجت مذكرتها من محفظتها وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها:

«أحمد الله أني قدرت على مكافأة ذلك الرجل الذي أحسن إليَّ بستر عاره، وإزالة همه وحزنه وافتدائه بنفسي».

ثم ألقت بنفسها في النهر، وما هي إلا دورة أو دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها، فطفا منهما ما طفا، ورسب ما رسب.

وفي صباح ذلك اليوم عثر الشرط بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها، وعادوا بها إلى منزل سيدها.. فبكاها بكاءً كثيرا، وندم على ما أساء به إليها من طردها وإزعاجها، ثم أمر بدفنها، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها التي حفظها في صندوقه دهرًا طويلًا.

مرت الأيام تلو الأيام، وجاءت الحوادث إثر الحوادث، وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها وتهتكها واستهتارها ما لم يكن يعرفه من قبل، حتى ضاق بأمرها ذرعا، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه ورزاياه، ثم ألمَّ به الضجر، فقام يقلب في صندوقه حتى عثر بتلك الحقيبة، ولم يكن قد فتحها حتى هذه الساعة. فإنه ليقرأ فيها إذ عثر بتلك الكلمة التي كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشيا عليه يعالج من الحزن والهم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت.

فما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم، ولبث على هذا الحال بضعة أشهر يمرض ثم يبل، ثم يمرض ثم يبل حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضا لم ينقض إلا بانقضاء أجله.

فيا أيها الوالد المجهول الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا الوجود الزاخر: أعلمت قبل أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقي من شقائه وآلامه ما لا قبل لها به، ولا لمخلوق من البشر باحتماله؟

ويا أيها الآباء العظماء: إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذه المدنية الغربية تتولى عنكم شأنهن، وتكفل لكم تربيتهن، فانتزعوا من بين جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والأنفة، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن وفجعكم في أعراضهن، وقفتم أمام تلك المشاهد هادئين مطمئنين لا تتعذبون ولا تتألمون.

ويا أيها الناس جميعا: لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب، ولا تفرقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور، ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقف على الأغنياء، وحبائس على العظماء، فقد علمتم ما أضمر الدهر في صدره من رذائل الشرفاء، وفضائل اللقطاء.

الصندوق

حضرة السيد الفاضل:

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور التي يبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه، والباقي يوزع على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدون بالمئات، فهل ترون أن هذه القسمة شرعية، مع أن الذين يأخذون الألوف أغنياء، والذين يأخذون الآحاد فقراء؟!

أفتنا أيها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الناس؟

«ابن جلا»

أيها السائل: أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال، كأنك تعتقد أنه ميراث شرعي، وأن لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال ما للوارثين من مال المورثين.

إن الذي أعلمه أن هذا الحق المزعوم حق موهوم، لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية؛ لأن الذين يضعون المال في ذلك الصندوق وأمثاله لا يريدون أن يهبوه لأحد من سدنة ذلك الضريح أو خدمته أو أصحاب العلائق بالميت المدفون فيه، ولو

أنهم أرادوا ذلك لما كان بينهم وبين هؤلاء القوم حائل يمنعهم عن وضع ذلك المال في أيديهم. ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميت حي في قبره يسمع نجواهم ويفهم حديثهم، ويلبي دعاءهم، تجسم في نظرهم هذا الخيال، فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء، حتى في حب المال وادخاره، فخُيِّل إليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي، فهم يهبونه المال، ويضعونه في صندوقه؛ لأنهم يعجزون عن وضعه في يده!

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال، والبحث عن مذاهبه ومراميه، فهو أمر لا يخطر على بالهم، ولا يدخل في باب مقاصدهم وأغراضهم.

فإن وجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال الذي يضعه في الصندوق إلى سدنة الضريح وخدمته وأشياع صاحبه، فعلمه هذا لا يستفاد منه أنه يهبه لهم أو يمنحه إياهم؛ لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم ذلك المال، أو يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي لما وسعه ذلك، ولا رأى إن فعله أنه عمل عملا صالحا.

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق أمر لا علاقة له به، ولا شأن له فيه؛ لأن المال قد خرج من يده إلى صاحب الضريح، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء.

فهو في جميع حالاته وشئونه لا يهب هبة صحيحة، ولا يتصرف تصرفا شرعيا، ولا يضع صدقة في موضعها، ولا يطرق بابا من أبواب البر والمعروف.

وعندي أن مثل هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه إلى غير يد وانقطعت ملكيته الأولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى، يعتبر مالا مهملا لا صاحب له، ولا علاقة لأحد به.

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في مثل هذا المال أن ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها وافتتحها بأداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[سورة التوبة: ٦٠].

فإن كان بين هؤلاء القوم المتظلمين من قلة أنصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة، فهو داخل في قسمة من الآية الشريفة، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيرا معدما كعامة فقراء المسلمين، لا من حيث أن له علاقة بصاحب الضريح تسوغ له أن يكون من ذوي الأنصبة في صندوقه، فإن أمثال هذه العلاقات قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى، فلا هياكل اليوم ولا سدنة، ولا وسطاء ولا شفعاء، ولا أقراط تعلق في آذان الأصنام، ولا عقود تقلد بها أعناق الأوثان، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا به عندما يبدو لهم القيام من مراقدهم. وإنما الناس جميعا سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى. لا فضل لأحد عنده على أحد إلا بالتقوى، ولا زلفى لأحد يزدلف بها إليه إلا يقينه وإيمانه وبره وإحسانه.

ذلك ما أراه في هذه المسألة، وهذا ما أعتقده فيها، ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت، أو أغضبت، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي، وحسبي ذلك وكفى.

* * *

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان، فأبرزتها الألحان، فهو أفصح الناطقين لسانا، وأوسعهم بيانا، وأسرعهم نفاذا إلى القلوب، وامتزاجا بالنفوس، واستيلاء على العقول، وأخذا بمجامع الأفئدة. وبيان ذلك أن النطق ثلاث طبقات، تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها، فأدناها النثر، وأوسطها الشعر، وأعلاها الغناء. فلو أن عاشقا برح به الهجر مثلا فأراد أن يبلغك ما في نفسه من ذلك، فإن قال لك: «إني مهجور» فحسب، فقد أبلغك بعض ما في نفسه، وترك في قلبك من الأثر بمقدار ما تحملته طبقة النثر من التأثير، وإن أنشدك قول الشاعر:

فوا كبدا من حب من لا يحبني ومن زفرات ما لهن فناء

أو قول الآخر:

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال، وصور لك خواطر نفسه بصورة أوضح من الصورة الأولى، وترك فى نفسك أثرا أعظم من الأثر الأول، وإن رفع عقيرته – وكان يجيد التوقيع – يتغنى بقول القائل:

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

فقد صور لك قلبه كما هو. وألمسك مواقع الآلام والأوجاع فيه، فبلغ بك التأثير منتهاه، وربما بكيت عند سماعه حزنا ورحمة، وما بكيت إذ بكيت إلا لأن الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها. وكما أن الأبيات قيود المعاني كذلك الألحان قيود الأبيات، فلا يزال المعنى مشردا هاهنا وهاهنا حتى يحتويه بيت من الشعر فيستقر فى مكانه، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال حتى يقوده الصوت الحسن، فإذا هو مستودع فى الصدور.

والغناء فن من الفنون الطبيعية تهتدى إليه الأمم بالفطرة المترنمة فى هدير الحمام وخرير المياه وحفيف الأشجار، فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليطرب جمله أو ناقته فينشطان للمسير، وما زال هذا الفن متبديا ببداوة الأمة العربية لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال، ومناغاة الأطفال، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات إلى منفسح الكماليات توسعت فيه، وزادت في أنغامه وضروبه، وتفننت فى آلاته وأدواته، وكذلك كان شأن العرب فى جاهليتهم، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية؛ فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك. فكأنهم كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحانًا موسيقية، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من

هذا النوع من الموسيقى، وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر. ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينها متسع للبراعة في هذا الفن والتفنن في مناحيه ومقاصده، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب، وفي أيديهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها أشعارهم تلحينا بذوا فيه أساتذتهم، وولدوا ألحانا وأنغاما لم يؤت بها من قبلهم، شأنهم في جميع الفنون والصنائع التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم. وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر في تقدم الغناء واتساعه، مثل: ابن سريج، ومخارق، وطويس، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وإبراهيم المهدي، ومعبد الذي طالما ضربت به وبحسن صوته الأمثال على ألسنة فحول الشعراء، كقول أبي عبادة البحترى فى وصف فرس كان أهداه إليه أحد الأمراء:

هزج الصهيل كأن فى نبراته نغمات معبد فى الثقيل الأول

والثقيل والخفيف الأول والثانى أسماء اصطلح عليها العرب ومرجعها إلى حركات الأصابع الخمسة في أوتار العود الخمس شدة وضعفا، وما أحسن قول أبي العلاء المعرى:

ولقد ذكرتك يا أميمة بعدما نزل الدليل الى التراب يسوفه[1]
وهواك عندى كالغناء لأنه حسن لديَّ ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضاضة الدين وغضارته في ذلك العهد – عهد الصدر الأول – وشدته في النهي عن التلهي بالغناء والعزف والزمر وأمثالها، ونعيه على من يحترف بذلك أو يتخلقه، فقد كان للمغنين الشأن الرفيع في مجالس الخلفاء والأمراء، والنصيب الأوفر من جوائزهم وصلاتهم. ولا غرو في ذلك، فسلطان الوجدان. عندهم فوق سلطان الأديان. ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحاق الموصلي شتم إبراهيم بن المهدي في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل، فما استطاع أخو الخليفة أن ينتصف لنفسه منه هيبة وإجلالا! وكان ابن عائشة المغني لا يغني إلا لملك أو ولي عهد، حتى كان الخليفة إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب له بذلك عهدا، بل يأذن لابن عائشة أن يغني عنده، فلا تطلع عليه الشمس حتى يفد الناس إليه يهنئونه بولاية العهد، فإن دعاه إلى الغناء لديه أمير أو وزير وجد من قوة الدالة بنفسه ما يدفع به الطلب عنه. ويروى أن ابن أبي عتيق – وهو من نعلم في شرف البيت وجلال المحل – رأى ابن عائشة يوما وحلقه مخدوش فقال: «من فعل بك هذا؟» قال:

(١) ساف التراب: اشتمه. يريد أنه ذكر حبيبته في أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركب ونزول الدليل لشتم التراب ليستدل منه نوع الأرض التي يسيرون فيها.

«فلان»، وأشار إلى ضاربه، فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه، فلما خرج أخذ بتلبيبه[1] وجعل يضربه ضربا موجعا، والرجل يصيح: «أي شيء صنعت؟ وما ذنبي إليك؟» وهو لا يجيبه حتى بلغ منه، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه، وسألوه عن ذنبه، فقال: «إنه أراد أن يكسر مزمارا من مزامير داود!» يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه. ومما يروى من حوادث تيهه وترفعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه:

أبعدك معقلا أرجو وحصنا قد أعيتني المعاقل والحصون

فأطربه، وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب، فبينا هو يسير إذ نظر إليه رجل من أهل وادي القرى كان يشتهي الغناء، فدنا من غلامه، وقال: «من هذا الراكب المختال؟» قال: «ابن عائشة المغني» فدنا منه، وقال: «جعلت فداءك! أنت ابن عائشة أم المؤمنين؟» قال: «لا، أنا مولى لقريش وعائشة أمي، وحسبك هذا فلا تكثر.» قال: «وما هذا الذي بين يديك؟» قال: «غنيت أمير المؤمنين صوتا فأطربته، فأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة.» قال: «جعلت فداءك! هل تمن عليَّ بأن تسمعني ما أسمعته إياه؟» فقال له: «ويلك! أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟!» قال: «فما أصنع؟» قال: «الحقني إلى المنزل.» يريد مخاتلته والنجاة منه، وحرك بغلة

(١) التلبيب: ما في موضع اللبب من الثياب: أي ما يدور بالعنق من القميص ونحوه.

شقراء تحته لينقطع عنه، فعدا معه حتى وافيا المنزل كفرسي رهان. ودخل ابن عائشة، فمكث طويلا طمعا في أن ينصرف فلم يفعل، فلما أعياه قال لغلامه: أدخله فلما دخل قال له: من أين صبك الله عليَّ. قال: أنا رجل من أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء. قال له: «هل لك فيما هو أنفع لك منه؟» قال: «وما ذاك؟!» قال: «مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك.» فقال له: «جعلت فداءك! والله إن لي لبنية ما في أذنها – علم الله – حلقة من الورق[1] وإن لي لزوجة ما عليها – يشهد الله – قميص، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خلتي وحاجتي لكان الصوت أعجب إليَّ منه!» وما زال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعد لأي[2] فطرب له الرجل طربا شديدا، وجعل يحرك رأسه وينطح به الجدار حتى خيف أن يندق عنقه، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئا.

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل على أن الغناء العربي كان قريبا إلى القلوب، وأنه منها بمنزلة الأصابع من الأوتار، فإذا لمسها رنت رنين الثكلى المرزوءة في واحدها. وأن الوجدان العربي وجدان رائق شفاف تأخذ منه

(١) الورق: الفضة.
(٢) اللأي: الجهد

مختلفات الأنغام، فوق ما تأخذ الكهرباء من الأجسام. كما تبلغ منه نظرات الغرام. فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام.

وكانت الأصوات عندهم تنسب إلى واضعيها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأن في الشعر. فيقال: صوت إسحاق، أو صوت معبد، كما يقال: شعر مسلم أو بشار. وكان المغني أحرص على صوته من الكريم على عرضه، فإذا صنع صوتا لا يسمح لأحد من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيه مرارا وتعرف نسبته إليه، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم. وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغريبة على مخاتلة المغنين عن أصواته، حتى أنه صنع مرة صوتا وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعدما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يحجم إن رأى في صوت صاحبه منتقدا أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه. وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك، كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم؛ مما يدل على أن الغناء العربي كان له عند العرب صبغة جدية، فوق صبغة اللهو، وأن الغربيين في هذا العهد الأخير ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقوم على أمرها من العرب في ذلك العهد الأول. ولو أن العرب

توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها، ولكنهم كانوا قلَّما يحفلون بإدخاله في الأغراض العالية، كالحروب ومواقف الفخر، وأمثال ذلك من المناحي والمقاصد إلا قليلا. كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم، وعلموا أن سبيل الوشايات بهم إلى الرشيد سبيل وعر، دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامنا في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه، فقال عند تمام الصوت: «نعم، إني عاجز، إني عاجز!» ثم كان من أمره معهم بعد ذلك ما كان. ولقد مضى الصدر الأول من الإسلام وشأن فن الغناء العربي هذا الشأن العظيم، خصوصا في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية. ثم أخذت شمسه الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها، حتى أصبح في حضارة الأندلس قدودا وموشحات، بعد أن كان قصائد ومقطعات، فكان لا يسمع أبناء العرب في ذلك العهد إلا قول المغني:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

أو قوله:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلي
واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات؛ فإنها وإن لم تكن شعرية اللفظ، فهي شعرية المعنى، عالية الخيال، وهي على علاتها خير من شعر العامة الذي قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به، كالزجل، والمواليا، والقوما، والدوبيت، وكان ويكون، وغير ذلك مما يسمى في عهدنا هذا بالأدوار، والتواشيح، والأغصان، والمذاهب، وأمثالها.

فهل لجماعة المغنين في عصرنا أن يعفونا من «أحب جميل طبعه الدلال.» ومن «يا حلو صن عهد ودادي الله يصونك.» ويأخذوا بنا في مسلك أشرف من هذا المسلك، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول، كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر؛ فلقد كان الشعر والغناء أخوين أليفين، رضيعيْ ثدي واحد، وضجيعيْ مهد واحد، ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا. فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما؟ وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهدا أن يهذبوا أخلاق أمتهم ويرفعوا شأنها، ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء؟ فينظم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق، كالشجاعة، والشهامة، والشرف، وحب الوطن،

والاتحاد، والتزهيد في صغائر الأمور والترغيب في عظائمها، فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها أكثر مما يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل، ثم يغنيها في الناس غير مبالٍ بما يفاجأه به ضعفاء النفوس من العامة من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه. وفي اعتقادي أن لهذه الطريقة من الأثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم، وتقويم ألسنتهم وعقولهم، ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال.

التوبة

علم فلان، وكان شابا من شبان الخلاعة واللهو، وقاضيا من قضاة المحاكم، أن المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة، والرفاهية والرغد، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها، فكررها أخرى، فبلغت منه، فتراسلا، ثم تزاورا، ثم افترقا، وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود.

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جانحتيها همًّا يضطرم في فؤادها، وجنينا يضطرب في أحشائها، ولقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل، أما الثاني فسِرٌّ مذاع، وحديث مشاع، إن اتسعت له الصدور، لا تتسع له البطون، وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد.

ذلك ما أسهر ليلها، وأقض مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها بُدًّا من الفرار بنفسها. والنجاة بحياتها. فعمدت إلى ليلة من الليالي الداجية، فلبستها وتلفعت بردائها، ثم رمت بنفسها في بحرها الأسود، فما زالت أمواجها تتلقفها وتترامى بها حتى قذفت بها إلى شاطئ الفجر، فإذا هي في غرفة صغيرة في أحد المنازل البالية، في بعض الأحياء الخاملة، وإذا هي وحيدة في غرفتها، لا مؤنس لها إلا ذلك الهم المضطرم، وذلك الجنين المضطرب.

كان لها أم تحنو عليها، وتتفقد شأنها، وتجزع لجزعها، وتبكي لبكائها، ففارقتها. وكان لها أب لا هم له في حياته إلا أن يراها سعيدة في آمالها، مغتبطة بعيشها، فهجرت منزله. وكان لها خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها، فأصبحت لا تسامر غير الوحدة، ولا تساهر غير الوحشة. وكان لها شرف يؤنسها ويملأ قلبها غبطة وسرورا، ورأسها عظمة وافتخارا، ففقدته. وكان لها أمل في زواج سعيد من زوج محبوب، فرزأتها الأيام في أملها.

ذلك ما كانت تناجي نفسها به في صباحها ومسائها، بكورها وأصائلها، فإذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب أحزانها، علمت أنه ذلك الفتى الذي وعدها أن يتزوجها فخدعها عن نفسها، ثم لم يف لها بعهده، فقذف بها وبكل ما تملك يمينها إلى هذا المصير.

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى؛ لأنه قتلها، وعلى المجتمع الإنساني؛ لأنه لا يعاقب القاتل على جرمه ولا يسلكه في سلسلة المجرمين.

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض.. فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها، فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات.. ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد.. وتعاني من صروف دهرها ما تعاني.

ولقد ضاق صدرها ذرعا بهذا الضيف الجديد، وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قربا إلى نفسها. فجلست ذات ليلة وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها، وظلت تقول:

ليت أمي لم تلدني وليتني لم أكن شيئا!

لولا وجودي ما سعدت، ولولا سعادتي ما شقيت.

إن كان في العالم وجود أفضل منه العدم، فهو وجودي!

لقد كان لي قبل اليوم سبيل إلى النجاة من الحياة، أما اليوم وقد أصبحت أُمًّا فلا سبيل.

أأقتل نفسي فأقتل طفلتي؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة؟

لا أحسب الموت تاركي حتى يذهب بي إلى قبري، فماذا يكون حال طفلتي من بعدي؟!

إنها ستعيش من بعدي وتشقى في الحياة شقائي، لا لذنب جنته ولا لجريمة اجترمتها سوى أنني أمها.

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومتي حينما تسمعين قصتي، وتفهمين شكايتي؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلاي إلا قليل سأبيعه كما بعت سابقه، فكيف يكون شأني وشأنك بعد اليوم؟

محال أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي؛ لأنه لم يبق لي مما يعزيني عن شقاء العيش وبلائه إلا أن أهلي لا يعرفون شيئا من

أمري، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الأعزاء، ولأن يبكوا مماتي خير لي ولهم من أن يبكوا حياتي.

وكذلك ظلت تلك البائسة تحدث نفسها تارة، وطفلتها أخرى بمثل هذا الحديث المحزن حتى غلبها صبرها على أمرها، فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء، ويقدر عليه البؤساء.

دارت الأيام دورتها، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها وما يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلي وثياب وأثاث، ولم يبق لها إلا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها، ولم تبق لطفلتها إلا ثياب باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة، فكانت تقضي ليلها شر قضاء، حتى إذا طار غراب الليل عن مجثمه أسدلت برقعها على وجهها، وائتزرت بمئزرها، وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طرقها لا تبغي مقصدا ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها، وهمها لا يزال يسايرها، ويترسم مواقع أقدامها.

وأحسب أن عجوزا من عجائز المواخير رأتها، فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى عادت إلى غرفتها، فوغلت عليها، ثم سألتها ما خطبها، فأنست بها، وكذلك يأنس المصدور بنفثاته، والبائس بشكاته، فكشفت لها عن أمرها، وألقت إليها بخبيئة صدرها، ولم تترك خبرا من أخبار نعيمها، ولا حادثا من حوادث بؤسها لم تحدثها به. فعرفت الفاجرة محنتها، ورأت بعينها

ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها، وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت لنفسها غنى الدهر، وسعادة العمر. فلم تزل ترسل إليها عقاربها وتنفث في نفسها عزائمها ورقاها حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها، فما هي إلا عشية أو ضحاها، حتى بلغت تلك الفتاة البائسة الغاية التي لا مفر لها ولا لأمثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد، عيشا أشقى من عيشها الأول في منزلها القديم؛ لأنها ما كانت تستطيع أن تزدرد لقمتها التى هي كل ما حصلت عليه في دورها الثاني إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها، وأحرقت دماغها بالسهر، وأحشاءها بالشراب وصبرت على كل من يسوقه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم على اختلاف طباعهم، وتنوع أخلاقهم؛ لأنها لم تر لها بدا من ذلك، فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلا.

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لألفت الشقاء ومرنت عليه، كما يألفه ويمرن عليه كل من أصيب بمثل ما أصيبت به، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه، فساق إليها رجلا كان ينقم عليها شأنا من شئون شهواته ولذاته، فزعم أنها سرقت كيس دراهمه في إحدى لياليه عندها ورفع أمرها

إلى القضاء، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها.

جاء يوم الفصل في أمرها، فسيقت إلى المحكمة، وفي يدها فتاتها، وقد بلغت السابعة من عمرها، فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء ويشاء له قانونه أو ذمته، حتى أتى دور الفتاة، فأدناها منه، فما وقع بصرها عليه حتى شدهت عن نفسها وألم بها من الاضطراب والحيرة ما كاد يذهب برشدها؛ ذلك أنها عرفته، وعرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها، وعلة بلائها. فنظرت إليه نظرة شزراء، ثم صرخت صرخة دوى بها المكان دويا وقالت:

رويدك يا مولانا القاضي، ليس لك أن تكون حكما في قضيتي، فكلانا سارق وكلانا خائن، والخائن لا يقضي على الخائن، واللص لا يصلح أن يكون قاضيا بين اللصوص!

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجرأة العجيبة، وهَمَّ أن يدعو الشرطي لإخراجها، فحسرت قناعها عن وجهها، فنظر إليها نظرة ألمٍّ فيها بكل شيء، فشعر بالرعدة تتمشى في أعصابه، وسكن في كرسيه سكون المحتضر على سرير الموت. وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت:

أنا سارقة المال، وأنت سارق العرض، والعرض أثمن من المال، فأنت أكبر مني جناية، وأعظم جرما.

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع أن يعزي نفسه باسترداده أو الاعتياض عنه، أما الفتاة التي سرقت عرضها فلا عزاء لها؛ لأن العرض الذاهب لا يعود. لولاك لما سرقت ولا وصلت إلى ما إليه وصلت، فاترك كرسيك لغيرك، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة، أنت مدبرها وأنا المسخرة فيها.

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة ثم تأتي بنا إلى هذا المكان، فتقف أحدنا في أشرف المواقف وتقف الآخر في أدناها لشريعة ظالمة، ليس بينها وبين العدل نسب موصول، أو ذمام غير منقضب.

رأيتك حين دخلت إلى هذا القاعة، وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني، فقلت: يا للعجب! كم تكذب العناوين، وكم تخدع الألقاب، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء، وجهالة جهلاء!!

بخ بخ لأولئك القوم الذين منحوك هذه الشهادة؛ شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب! ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد، ووضعوا بين يديك هذا القانون، وأوقفوا أمامك هذا الشرطي يأتمر بأمرك، وينفذ حكمك، ويجرى على هواك.

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوسًا ليست بأقل من نفوسنا شرًا، ولا أخبث منها مذهبا، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا العناوين والألقاب، والشمائل والأزياء.

أتيت بي إلى هنا لتحكم عليَّ بالسجن كأن لم يكفك ما أسلفت إليَّ من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلاحق لذلك السابق.

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟

ألم تك إنسانا فترثي لشقائي وبلائي؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمت بها إليك، فوسيلتي إليك ابنتك هذه، فهي الصلة الباقية بيني وبينك.

فرفع القاضي رأسه، ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة شفقة ورحمة، وقد قرر في نفسه أن لا بد له من أن ينصف تلك البائسة، وينتصف لها من نفسه. غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصا جميلا، فأعلن أن المرأة قد طاف بها طائف من الجنون، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب، فصدق الناس قوله.

ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه، وقلب غير قلبه، وما هي إلا أيام قلائل حتى هجر القاضي منصبه بحجة المرض، وما زال يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته، واستخلص أمها من قرارتها، وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما فيه أحد، فتزوج منها، وأنس بعشرتها، واحترف في دار هجرته بحرفة لولا أن أدل عليه إذا ذكرتها لفعلت. ولا يزال حتى اليوم يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف العطف وألوان الإحسان، حتى نسيا ما فات، ولم يبق أمامهما إلا ما هو آت.

* * *

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد، وما أسدى إليه من نعمة، لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين يدي المحسنين.

لا يزال صاحب النعمة ضالا عن نعمته لا يعرف لها شأنا. ولا يقيم لها وزنا. حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها، ويرشده إليها بتزييفها والغض منها، فهو الصديق في ثياب العدو، والمحسن في صورة المسيء.

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد، ينقم على حسوده نعم الله عليه، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها، وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة وفي تلك الأمنية قد أضاف إلى نعم محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم.

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد، ثم خالسه نظرة خفية، فحيث ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها.

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأنا وأقل خطرا من نعمة ليس لها حاسد، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين، وألقها في طريق الناقمين، فإن

حاولوا تحقيرها وازدراءها فاعلم أنهم قد منحوك لقب «المحسد»، فليهنأ عيشك، وليعذب موردك.

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل، فانظر إلى أكثرهما نقمة على صاحبه وكلفا بالغض منه والنيل من عرضه، فاعلم أنه أصغرهما شأنا وأقلهما فضلا.

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة آتية يتألم لها، فالشارب يتألم عند حلول مرضه، والمقامر يوم نزول فقره، والسارق يتألم يوم دخول السجن.

أما الحاسد فعقوبته حاضرة لا تفارقه ساعة واحدة.

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها إلا التنقل من مظهر إلى مظهر، والتحول من موقف إلى موقف، فهيهات أن يفنى ألمه، أو ينقضي عذابه، حتى تقر عينه التي تبصر، ويسكن قلبه الذي ينبض.

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة، ولكل داء دواء، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها. ولا أحسب أنه ينفق من وقته وعمله في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك في الغضّ من شأن محسوده والنيل منه، فإن كان يحسده على المال فلينظر أي طريق سلك إليه فيسلكه، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم، أو الأدب فليتأدب، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ عمره بشئون لولاها لقضاه بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل.

الوفاء

يا صاحب النظرات:

تزوجت منذ سنة من زوجة صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان، وفي هذه الأيام عرض لها رمد في عينيها فذهب ببصرها فأصبحت عمياء، وأصبحت أعمى بجانبها، قد بدا لي أن أطلقها، وأتزوج من غيرها، فماذا ترى؟

«إنسان»

أيها الإنسان لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين، وجرم الغادرين. كن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم؛ حتى تستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر لأمثالك من الصابرين المحسنين.

لا تقل إنها عمياء فلا خير لي فيها ولا غبطة لي بها، فإنك ستجد في نفسك من لذة المروءة والإحسان والعطف والحنان ما يحسدك عليه الناعمون بالحور الحسان في مقاصير الجنان.

اجلس إليها صباحك ومساءك، وحادثها محادثة الصديق لصديقه، بل الزوج لزوجه، وتلطف بها جهدك، وروِّح عن نفسها ما يساورها من الكروب والأحزان، وقل لها: لا تجزعي ولا تحزني، فإنما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين.

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته، والعهد وذمامه، أن تجعل لهذا الخاطر السيئ – خاطر الطلاق أو الفراق – سبيلا إلى نفسك، فإنها لم تسئ فتسيء إليها، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها، فإن كنت لا بد ثائرًا لنفسك فاثأر لها من القدر إن استطعت إلى ذلك سبيلا.

إن عجزا من الرجل وضعفا أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه، ويعتدي على من لم يعتد عليه.

إن لم يكن احتفاظك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلا يسألك الله عنه، فليكن إحسانا تحاسبك الإنسانية فيه.

إنك خسرت بصرها، ولكنك ستربح قلبها، وحسب الإنسان من لذة العيش وهنائه في هذه الحياة قلب يخفق بحبه، ولسان يهتف بذكره.

إنها أسعدتك برهة من الزمان، فليخفق قلبك حنانا عليها بقدر ما خفق سرورا بعشرتها.

لا أحسب أنها كانت تاركتك، أو مغفلة أمرك لو أن هذا الذي أصابها أصابك من دونها، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضلية الصدق والوفاء.

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها؟ وأي موطن من المواطن هيأته لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على شئون عيشها. وتأنس بها في وحشتها ووحدتها؟!

كيف يهنأ لك عيش، أو يغمض لك جفن، إذا أظلك الليل فذكرتها، وذكرت أنها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله، وأنها ربما كانت تطلب جرعة ماء فلا تجد من يقدمها إليها، أو كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجاتها فأخطأ تقديرها فصدمها الجدار في جبينها صدمة سال لها دمها حتى امتزج بدمعها؟

أيها الإنسان: إن لم تكن عادلا ولا وفيا ولا محسنا، فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لا بد أن سيساورك ويفت في عضدك ويزعجك من مرقدك، فإن لم تكن هذا ولا ذاك، فغيرك أخاطب؛ لأني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان.

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم، تزوج زوجة حسناء، فاغتبط بها برهة من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجتك، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا مثل ما تترك الشمس من الشفق الأحمر في صفحة الأفق بعد غروبها. فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئا، حتى إنه كثيرًا ما كان يعتب عليها في بعض الأحايين في ذنوب ما كان له أن يؤاخذها بها إلا من حيث كونها ناظرة مبصرة، يريد بذلك أن يلقي في نفسها أنه لا يعرف من قصة نظرها شيئا، وأنه لا يرى فيها غير ما يراه

الرجال من نسائهم المبصرات، رفقًا بها وإبقاءً على ما تحب من الاعتداد بنفسها، والإدلال بمزاياها.

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب في آدابهم ومكارمهم وأخلاقهم، ولطف وجدانهم، فلم أر بينها نادرة أعلق بالقلوب، ولا أجمل أثرا في النفوس من قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية، وكان كفيف البصر: «اختلفت إلى القاضي أحمد ابن أبي دؤاد أربعين سنة، فما سمعته يقول لغلامه عند تشييعي: خذ بيده يا غلام، بل يقول: اخرج معه يا غلام.»

فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب ما سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ، فلا تطلق زوجتك، ولا تنقم منها أمرا قد خرج حكمه من يدها، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذة العيش وهنائه، فاعلم أنه ما من لذة يلذ بها الإنسان في حياته إلا ويشوبها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة الإحسان.

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق أمس على كرسيه في غرفته، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان[1] قذر «الثوب»، دميم المنظر، تسنح شعراته البيض في أكناف رأسه ولحيته سنوح الشرر الأبيض في الدخان الأسود، وتتمشى في أديم وجهه صفرة مغبرة، من رآها علم أنها نسيج ذلك الدخان، دخان الحشيشة الذي ينفثه من فيه في صباحه ومسائه، وغدوه ورواحه. ووقف عن يساره صبية ستة نحل الأبدان، جوع الأكباد، لم يترك لهم الدهر – آكل البؤساء وشاربهم – إلا هياكل من عظام تضطرب في رءوسها عيون لا تستقر في محاجرها إلا إذا استقر الزئبق في قرار مكين.

نظر إليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة، وتخالطها الشفقة، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون لولا أن من المناظر مناظر تنال من القلوب القاسية، وتستهوي الأفئدة المتحجرة. وأنشأ يسألهم واحدا بعد واحد ما شأنهم وما خطبهم وما مصيرهم. فكان جوابهم جوابا واحدا خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلتهم[2] من حيث يخفى مكانها، فثغر[3] فيها ثغرة انحدر

(١) جمع سن: وهو العمر

(٢) الخلة: الحاجة.

(٣) ثغر الشيء: ثلمه وفتحه.

منها إلى أعراضهم، فعبث بها ما شاء وشاء العابثون. فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها، حتى إذا استنفد درتها[1] ألح على دمائها فاستنزفها. وقالوا: إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم، فإذا علم أنهم هلكوا أو كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغة أثر المضغة، ويرمقهم[2] العيش ترميقا لا إبقاءً عليهم، بل على ما كان يغتنمه من بسطة العيش من ورائهم. وزعموا أنه كان يريبه منهم في بعض الأحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه، فيدخل في أدمغتهم لصا من دخان الحشيشة يسرق عقولهم، ويحل عقدة منعتهم، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون.

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي، فراعه من أمرهم ما راعه، ثم علم أنه الجوع، فأمر لهم بخبز وإدام، فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته، وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر إليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده إذا أفلت من حبالته.

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله، وحسبت أنه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليقة في مغارة من مغاور الجن، أو شعفة[3] من شعفات الجبال،

(١) الدرة: اللبن.
(٢) رمقه الشراب: أعطاه إياه حسوة حسوة.
(٣) الشعفة، رأس الجبل.

وقلت له: «أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن إنسان؟ فقال: «لا تعجل، فما حدثتك إلا عن رجل حمار لا يفارق وجهه سوءة حماره ليله ونهاره، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة، فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين والأشراف والمستورين؟!

إن بين جدران هذه البِنَي التي يسمونها المدارسَ وقائعَ لا يَسر منظرُها. ولا يروق مَخبرها. وحوادث لو تلاها التالون على مَسمع الفلك الدائر لوقف عن دورته. أو الجبل الشامخ لصعِق من دهشته.

إن بين هؤلاء الذين نراهم وُقوفًا في أشرف المواقف بعد مواقِف الرسل والذين تُغضى بين أيديهم العيونُ إجلالًا وإكبارًا. وتترامى على أيديهم الأفواه لثمًا وتقبيلًا. والذين أسلمت الأمة أمر بنيها إليهم وأخذت عليهم ما شاء الله أن تأخذ من العهود والمواثيق أن يكونوا لأولئك الأبناء آباء محسنين. وأوصياء راحمين. قومًا لصوصًا يَسرقون الأعراض. وخوَنة يعبثون بالأمانات. وقتَلةً يفتِكون بأعراض تلاميذهم فيوردونهم مواردَ الحتف والهلاك. ويجعلون مصيرَهم مصيرَ أولئك الصبيان الذين فارقناهم في غرفة التحقيق.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى سُرّي عن نفسي ما كنت أُملكه بين جنبيّ من الموْجدة على ذلك الرجل. وعلمت أن الجناية ليست جناية الحشاشين والحمّارين. وإنما هي جناية المربّين. وجريرة المهذّبين.

أساءَ الأبُ بادخال ولده المدرسة. وكان خيرًا له لو أدخله المزرعةَ حيث لا سقوفَ ولا جُدران. ولا خبايا ولا زوايا. ولا مكامن ولا مخادع. وحيث يَجد النابتُ هناك من الطبيعة الطاهرة أستاذًا أمينًا مستقيمًا. لا عاهرًا ولا فاسقًا. ولا خائنًا ولا غادرًا. وحيث يَرتشف من عَرق جبينه نهلات بارداتٍ أصفى من المِرآة وأطهرَ من الكوثر.

وأساء المعلمُ لأنه هو الذى عمَد إلى ذلك الصبى الطاهر فمَزق عنه بُرقعَ عَفافه وتصوّنِه. ثم قذف به فى ذلك المزدحَم الإنساني المائج بالشرور والآثام لا يَحمل فى يده سلاحًا يحارب بـــه. ولا يعرف السبيل إلى جُنّة يَدفع بها عن نفسه. فما له بدٌّ من العجز أمام القادرين. والإدبار بين أيدى المُقْدِمين.

وأساء الناسُ جميعًا بإغفالهم أمرَ هؤلاء البؤساء وإمساكِهم القوتَ عنهم والمعونة لهم. ولو أنهم أحسنوا إليهم لأنقذوهم من حياة كلها شقاء وبلاء. وعيب ونار.

قلت: لا تحدثيني عن شيء، فلم يبق في قلبي متسع، لاحتماله أكثر مما احتملت والأمر لله وحده.

ليست مسألة الزوايا وخباياها أمرا يستهان به، أو تفضى العيون عليه فإننا نريد أن نعد لوطننا بعدنا رجالا ذوي شجاعة وجرأة، وإقدام، وعزة وأنفة، من الذين إذا عظم الخطب كانوا حماة الديار، وإذا اشتد البأس لا يولون الأدبار.

الجامعة الإسلامية

أنا لا أحب أن أخدع نفسي عن نفسي. ولا أحب أن أخدع الناس عنها.

أنا مسلم قبل كل شيء، أي قبل أن أكون وطنيا أو سياسيا أو مجتمعيًّا، بل قبل أن أكون نسمة حية في هذا الوجود.

لو علمت أن مآرب هذه الدنيا وأغراضها لاتنال إلا بترك شعيرة من شعائر الدين أو العبث بفريضة من فرائضه لعفتها واجتوُيتها ونفضت يدي منها وقلت لها كما قال لها عليّ بن أبي طالب من قبل : إليك عني غري غيري مالي بك حاجة.

لو لم يكن في الأمر إلا أن أخسر ديني فأربح دنياي. أو أخسر دنياي فأربح ديني. لآثرت أخراهى على أولاهما.لأني أعلم أني إن خسرت دينى فقد خسرت كل شيء.

لو علمت أن الوطنية – وهي أفضل ما حمل امرؤ بين جنبيه من خلال الخير – تعترض دون طريقي إلى آخرتي. أو تمتد حجابا بيني وبين ربي. لخرجت منها كما أخرج من ردائي. ثم خلصت إلى شعفة من شعفات الجبال أوصخرة في منقطع العمران أخلو فيها بنفسي من حيث لا أسمع دعاءً غير دعاء القلب. أو نداءً غير نداء الله. حتى يحين حيني. وينقضي أجلى.

ما أبغضت في حياتي شيئا بغضي للكذب والرياء. فإما أن أكون مسلما.فها هو ذا الإسلام. وهذه شروطه وقيوده. وصفاته وطبائعه.

أو لأبديت للناس صفحتي. وأعلنت لهم أمري. حتى يعلموا من أمر نفسي مثل ما أعلم منها.

أنا لا أحدث في ذلك عن نفسي خاصة بل عن المسلم من حيث كونه مسلمًا. أي مصدقا بالله ورسوله. ووعده ووعيده. وثوابه وعقابه ومعتقد أن الحياة الدنيا معبر يعبره إلى الحياة الأخرى. وأنه محاسب في أخراه حسابا غير يسير على ما فرط في أولاه. وأن الله لا يقبل منه في موقف الحساب من المعاذير إلا ما رخص له فيه أو رفع عنه مؤنته. فلا سبيل له إلا أن يلبس ثوب الإسلام معلما. لا خائفا ولا مترقبا. ولا متحذرا ولا متكتما. ولا محتفلا بقول العيسوى أو الموسوى له أنت متعصب. ولا بقول الملحد أو الجاحد أنت مخرف. فهو ليس متعصبا بل متمسكا. ولا مخرفا بل مستيقنا. وأن يعترف به جهرة في جميع مواطنه ومواقفه لا مستحييا ولا خجلا. فقد انقضى عهد الإسرار والإخفاء من تاريخ ذلك اليوم الذي أسلم فيه عمر بن الخطاب فمشى إلى المسجد الحرام حيث يجتمع كفار قريش وأعلن فيه إسلامه بين هياجهم ونقمتهم. ثم مر يقرع أبواب رؤسائهم بابا بابا فإذا فتحوا له حدثهم عن إسلامه فضربوا الباب في وجهه غيظا وحنقًا.

التمسك غير التعصب والتهاون غير التسامح. فليس كل ممسك متعصبا. لأن التمسك محافظة المرء على العمل بأوامر الدين ونواهيه. والتعصب بغضه لمخالفيه في دينه بغضا يحمله على محاولة النكاية

بهم. والعبث بما حقن الله من دمائهم. وصان من أعراضهم وأموالهم. وليس كل متهاون متسامحا. لأن التهاون ترك المرء العمل بما فرض الدين عليه أن يفعل أو يترك. والتسامح إغضاؤه عن خلف المخالفين له. بحيث لا يعد تلك الفروق الدينية التي بينه وبينهم وسيلة إلى بغضهم أو مناضلتهم. أو نصب الغوائل لهم. أو سد سبل العيش في وجوههم.

ولقد اعترضت الآراء والمذاهب حلوها ومرها، ومعوجها ومستقيمها. فلم أر رأيا أضعف حجة ولا أضل سبيلا من رأي الذي يقول إن الدين لا يجوز أن يتجاوز عتبة المسجد، وكيف يستطيع المسلم أن ينفرد بنفسه عن دينه في موطن من المواطن. أو مذهب من المذاهب. وهو رفيق طيته. ولصيق نفسه. في قيامه وقعوده. و يقظته ونومه. وانفراده واجتماعه.

ذلك أن المسلم لا يستطيع ألا يعطف على أخيه المسلم عطفا خاصا به فوق عطفه على غيره من أفراد البشر لأنه مأمور أن يكون منه منزلة اللبنة من اللبنة في البناء الواحد. أي أن يكون عضدا له في شؤون دينه ودنياه.

ولا يستطيع أن يسمع كلمة سوء يريد بها قائلها النيل من دينه والغض منه دون أن يغضب لها. لأنه من دينه على بينة. والغضب لا يزال رذيلة من الرذائل حتى يكون للحق فهو أفضل الفضائل.

ولا يستطيع أن يبيع أو يبتاع. و يقرض أو يقترض. وينطق أو يصمت. و يعاشر أو يقاطع. ويوافق أو يخالف. إلا إذا نظر فيما

أحل الدين من البيع وحرَّم من الربا وفي ما رخص للمتكلم أن ينطق به، وأوجب عليه أن يمسك عنه. وفي شرع من معاشرة خيار الناس ومجانبة شرارهم، وموافقة المحقين. ومخالفة المبطلين. وهكذا حتى لا يخرج في جميع أفعاله وتروكه عن الدين المحيط به في جميع شؤونه وحالاته، سواء أكان في المسجد أو البيعة أو المنزل أو السوق أو المجتمعات العامة أو المجتمعات الخاصة.

وكما لا يستطيع أن يخرج عن أحكام الدين في شيء من هذا كذلك لا يستطيع أن يخرج عنها في كيفية معاملة المخالفين له في الدين من الرأفة بهم، والعطف عليهم. والإحسان إليهم. ما داموا موالين له. غير خارجين عليه. ولا مادين إليه يد سوء.

فلتنعموا أيها المسيحيون بالا. ولتثلجوا صدورا. ولتعلموا أن المسلم لا يستطيع أن يكون متعصبا ما دام متمسكا بدينه. لأن في تعصبه هدما لأعظم ركن من أركان الدين الذي يتعصب له.

فإن رأيتم أنه يغضب لشتم دينه أو نبيه في صحيفة تنشر في بلاده، أو يضمر في قلبه جزعا من العهد بشؤون المسلمين الدينية إلى غير مسلم. فلا تقولوا إنه متعصب. وإنما هو متمسك بدينه تمسككم بدينكم. ولا تطلبوا عنده أكثرمما تطلبون عند أنفسكم. وارحموه ولا تعذبوه بإدماء قلبه. وإحراج صدره، فإنه يرحمكم ولا يعذبكم.

وإن رأيتم أن في المسلمين متعصبين فاعلموا أنهم متعصبو أقوال. لا متعصبو أفعال. أي أنهم يبغضون المسيحيين ولا يقاطعونهم.

ويدعون عليهم بالهلاك ولا يمدون إليهم يد سوء. ويسيئون الظن بهم وهم يستعينون بهم في جميع أعمالهم سرها وجهرها. ويتمنون لهم الخسران وهم يحمونهم مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم. فهذا التعصب لو تبينتم مظهر من مظاهر الحماقة والبله لا أثر له في نفوسهم، ولا علاقة بينه وبين تدينهم. ولا يمكن بحال من الأحوال أن يشبه تعصب المعروفين بالتعصب من المسيحيين الذين يضمرون للمسلمين في قلوبهم ما تصمت عنه ألسنتهم. وتنطق به أعمالهم. فترى الواحد منهم لا يبتاع حاجته إلا من المسيحي إن كان مشتريا. ولا يستعين على عمله إلا بالمسيحي إن كان تاجرا أو صانعا. ولا يوظف إلا المسيحي إن كان رئيسا في مصلحة. ولا يهتم إلا بالدفاع عن المسيحي إن كان محاميا. ولا يرحم إلا المسيحي إن كان قاضيًا.

إن المسيحي الذي يقول للمسلم أنت متعصب قبل أن يرى في سيماء وجهه أثر العداوة والبغضاء له وإرادة الايقاع به لا يريد بكلمته هذه خيرًا له. بل خديعته عن دينه والهجوم على قلبه. والتمكن من مجالسته على مائدة واحدة تختلط فيها الأيدي والأفواه. ويخطئ فيها العدو و يضيع الحساب. فيتناول منها ما لذَّ وحلا ويترك له ما مر وتفه. ولقد بلغ منه في كثير من الأحيان الغرض الذي أراده فخدع كثير من المسلمين عن دينهم. ونالت تلك المكيدة المدبرة من نفوسهم. وعظم عليهم أن يسموا متعصبين وكانوا لا يدركون فرق ما

بين التمسك والتعصب فتهاونوا في أمر دينهم وازدروه. واستحيوا من اللصوق به. والأخذ بشعائره. فأصبح الواحد منهم لا يجرؤ أن يفتتح خطابه أو كتابه أو طعامه بالبسملة. ولا يجرؤ على السلام أو رده بالصيغة المأثورة. ولا على إقامة الصلوات في أوقاتها في مجتمع عام. ولا على الاعتذار عن ترك منكر من المنكرات بعذر الدين. بل إن فيهم من يرائى بالفسق والضلال كما يرائى الفساق والضلال بالصلاح والتقوى. فيقيم الصلاة في بيته ويزعم أنه تاركها. ويترك شرب الخمر تدينا ويزعم أنه تاركها توفيرا لماله أو خوفا على صحته. فرارا من تهمة التعصب. أي تهمة التدين. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولم أر في حياتى منظرا أبرد ولا أسمج من منظر المسلم الذي يجالس المسيحي في مجتمع عام فيقول له إني أحبك محبتي لنفسي لأني أعتقد أن كلينا يعبد إلها واحدا ويدين بدين صحيح يأمر بفضائل الأعمال وينهى عن رذائلها. وربما كان يضمر له في قلبه في تلك الساعة من العداوة والبغضاء ما لو طارت شرارة منه لأحرقتهما جميعا وتركتهما رمادا تذروه الرياح. وعندي أن الأفضل من هذا الرياء الكاذب والدهان المصنوع أن يقول له إني أعتقد صحة ديني فلا بد لي أن أعتقد فساد غيره من الأديان. لأني لو كنت معتقدا صحتها لتقلدتها وهجرت ديني لأجلها. وإني على ذلك لا أحمل لك في صدري ضغينة ولا موجدة لأني أعلم أنك إنسان. وديني لا يسوغ

لي أن أبغض أحدا من الناس. غير أني لا أستطيع أن أحبك محبتي لأخي المسلم لأنى إن أحببت الذي يساعدني على حفظ مالى أو صيانة ولدي حبًّا جمًّا فأحرى بي أن أحب الذي يساعدني على حفظ ديني الذي هو أعز عليَّ من نفسي وولدي حبًّا لا حدّ له.

إن المصانعة والمجاملة في الدين ليست سبيل الاتحاد والاتفاق كما يظن الذين يصانعون ويجاملون. وما هي إلا الخداع والغش. وما علمنا أن أمة أسعدها الغش أو رفعها الخداع. وها هي ذا الجرائد المسيحية والإسلامية في مصر يفتتح أكثرها كل يوم فصول العداوة والبغضاء. بعناوين المحبة والإخاء. فلم يف خيرها شرها. ولا نفعها بضرها. بل السبيل إلى ذلك أن يعلم المتدين علما صحيحا أن الاختلاف في الدين شيء والتباغض فيه شيء آخر، وأن الدين الذي يسوق العالم إلى الهلاك والفناء لا يمكن أن يكون دينا إلهيا.

إن الإبهام والإغماض في التدين يقتل الدين في نفوس المتدينين قتلا لا حياة له من بعده. فلا بد للمسلم من أن يكون مسلما في جميع حالاته وشؤونه. وإسراره وإعلانه. فلا يستحيي أن يلبس عمامته في باريس كما يلبسها في مصر، وأن يقيم الصلاة لوقتها في قصر الفاتيكان كما يقيمها في مسجد قريته. وأن يترفع عن مجاراة الغربيين في عاداتهم التي يرى أنها لا تلائم دينه. فلا يشرب نخب أحد من الناس وإن كان في مجلس الإمبراطور. ولا يأكل لحم الخنزير وإن قدمه له بيده القيصر. ولا يحمل بساط الرحمة في

جنازة ميت من الأموات وإن كان بابا رومه. ولا يحمل سلاحه راكضا إلى مقاتلة أخيه المراكشي إن كان جزائريا. أو المصري إن كان هنديا. ولو كان دون ذلك موته صبرا. وليعلم أن ذلك سبيله الذي لا سبيل غيره إلى العظمة التي يجب أن تكون له في نفوس المخالفين له في دينه أو عاداته. وإن حاول مخادع أن يخدعه عن نفسه ويلقي في روعه أن اطراح المسلمين للدين وسيلة تقدمهم كما كان اطراحه وسيلة تقدم المسيحيين فليذكر دائما كلمة ذلك الرجل العظيم السيد جمال الدين الأفغاني في قوله «ترك المتدينون دينهم فتقدموا، وترك المسلمون دينهم فتأخروا».

الجامعة الإسلامية بالنسبة للمسلم هي الجامعة الكبرى التي يجب أن يمنحها بنات قلبه. وجوهر لبه. قبل أن يمنح ذلك غيرها من الجوامع الأخرى. وما احتاج المسلمون إلى تلك الجامعة في دور من أدوار حياتهم احتياجهم إليها في هذا العصر الذي أصبحوا فيه شتى المسالك والمذاهب بين سمع الأرض وبصرها. وأصبحوا لا موطن لهم إلا تلك البقاع المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها التي يعيشون فيها عيش الأذلاء المستضعفين. بين مهاجر يأكل خبزهم. ومستعمر يشرب دمهم. ومبشر يفتنهم عن دينهم، أو ينغص عليهم عيشهم بمشاغبتهم ومجادلتهم. والاستهزاء بعقائدهم وشعائرهم. فإن لم يتعارفوا ويتعاقدوا على التعاون والتناصر تعاقدا يأنسون به عند اشتداد الكربة. ويفزعون إليه من كلب الزمان وغدره. كان آتيهم شرًّا من حاضرهم. كما كان حاضرهم شرًّا من ماضيهم.

أنا لا أريد بالجامعة الإسلامية أن يجتمع المسلمون على قتال المخالفين لهم في دينهم. فقد مضى زمن القتل والقتال. بل أريد أنهم إن كانوا يحتفلون بالجامعة الجنسية أو الوطنية مرة لأنها وسيلة دنياهم. فأحرى بهم أن يحتفلوا بالجامعة الدينية ألف مرة لأنها وسيلة دنياهم وأخراهم. وللآخرة خير وأبقى.

الوجهاء

الكاتــب – مــا هذه الطبقة التي تكســو وجهــك فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء، من السحب السوداء.

الوجيــه – إن بين جنبيَّ همًّا يعتلــج، وكمدا يذهب باللب ويطير بشــظايا القلب، ونارا من الحزن متأججة مضطرمة دخانها هذا الذي تراه..

الكاتب – أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه المغتبط بعيشه، قصــر غمدان، وخورنق النعمان، وحور وولدان، وظل ظليل، ونســيم عليل، وخزائن تموج بالذهب، موج التنور باللهب، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن وسلامة الحواس وأمدك به من الجاه العريض والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة، فليت شعري ما شكاتك بعد ذلك؟

الوجيه – أشــكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر، والشــقاء المقبل في الســعد المدبر، وإني لأرى في الســماء غمامة دكناء يوشــك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى والكارثة العظمى..

الكاتب – ما كنت أحســب أن الشــقاء يمر لك ببال بعد ما أعطاك الدهر عهدا مكتوبا بتلك الأحرف الذهبية، ألا يســدد سهمه إليك، ولا يدور بدورته عليك..

الوجيــه – متى كان للدهــر عهد يوثق به أو ذمــام يعتمد عليه، فالناس في يده كالكرة ذات الألوان في يد الصبي، يديرها فترى الأسود

في مكان الأبيض، والأبيض في موضع الأسود وكذلك بقية الألوان تعلو أسافلها وتسفل أعاليها، ودورة السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح الطرف ولفتة الجيد..

الكاتب – هل لك أن تحدثني من أي منفذ نفذ الدهر إليك وما عهدتك شاربا ولا عاهرا، ولا مقامرا ولا مستهترا؟ وما للدهر مدخل يشرب منه إلى خزائن الأغنياء غير هذا المدخل..

الوجيه – أين يذهب بك أيها الصديق، وهل يؤتى الأغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة، وهل يكب العظماء على وجوههم ويلصق بالرغام معاطسهم، إلا الشغف بنظرة الأمير،ولفتة الوزير، وزورة المدير، وأنت تعلم أن رجلا مثلي لا يمكن أن يكون له مطمع في المجد الصحيح، فلست بصاحب علم فأفخر به، ولا صاحب قلم فأمت بما يمت به أصحاب الأقلام من خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه، فلم يبق أمامي غير هذا المجد الكاذب، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ولا سبيل إليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز ركفيلر، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة، في بناء القصور نزلا للحكام، وغرس البساتين منازه لهم ؛ وإعداد الفرش والآنية لمآدبهم وولائمهم، فلما نضب معين الذهب، وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر لجأت إلى مصرف من المصارف المالية فأثقلني بالديون، وأرهقني بالطلب ففزعت منه إلى آخر، ثم إلى آخر فكنت كالمتوضئ بالبول، أو غاسل الدم بالدم ولو كشف لك من أمري ما كشف لي منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان

وعقار، ودور وقصور لم يبق لي منه إلا تلك الأرقام السوداء المسطورة في جرائـد الصيارف، وها أنذا اليوم طريد المصارف والغرماء، وغريم القضاءين: قضاء الأرض وقضاء السماء..

ذلـك كل ما يسـتفيد الوجيه من وجاهته قبحهـا الله وقبح كل ما تأتي به، فلا تحسـد الوجيه على مظهره الـكاذب، وزخرفه الباطل ولا تنفس عليه بؤسـه الكامن، وشقاءه الخفي، فهو أتعس خلق الله، وأكثرهم همًّا وأثقلهم مئونة، وأخسرهم حاضرا ومستقبلا، يكون عنده من الضياع أو العمائر جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسـع ترفيه نفسـه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيها، والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير، كأنما هي عندهم من جوامع الكلـم، فالوجيه في اصطلاحهم هـو الرجل الذي يمد لكل غريب نزل بلده مائدة، ويسـبغ العطاء على كل عابر سـبيل مر بحيه، ويشترك في جميـع الجرائد والمجلات وإن كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ويبتاع تذاكر حفـلات الجمعيات الخيرية على اختلاف ألوانها وأشـكالها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان، وجمعيات الرفق بالإنسان، ويبتاع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير أو المأمـور بابتياعها وإن كانت في علم الأرتناطيقي أو علم المنطق وكان هو عمدة أو شيخ بلد، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفـر إلا إذا بـذل للحكومة المعونة الكبرى في مشـاريعها من بناء المستشـفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال ذلـك مما تضربه الحكومة

علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في سالف الأزمان، والتي لا فرق بينها وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأملاك..

الكاتب – إنها تبرعات ومبرات لا إجبار فيها ولا إلزام، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحا، ولا تعد لكم سجنا، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة..

الوجيه – لا أزال أكرر القول: إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد، مجبور باطنا مختار ظاهرا، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه، وأما الباطن فهو أن الوجيه منا – كما علمت – مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم، فمنا من يزوره المدير أو المفتش لأنه وهاب الآلاف، أو المأمور لأنه من أصحاب المئات، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له إذا أقبل، ولا يشيعه إذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعا، ولا يكتب رقما في قائمة اكتتاب، فلا يلبث أن يسلس قياده، ويصحب عناده، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحا، أو تعد لهم سجنا، ولكنها تبلغ به في

شــهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و«الويركو» و«البطانطا»، والعوائد الشخصية في عدة أعوام، ولقد راجعت صحيفة حســابي في هذا العــام – عام الأزمة والجــدب – فوجدت أني دفعت خراج الأطيان مرتين ولا أعلم كم أدفعه في السنة الآتية..

الكاتــب – هب أن الأمر صحيح كما تقول، فالحكومة لا تودع هنا المــال خزانتها، ولا تقضي به غرضا من أغراضها الخاصة وإنما تنفقه فيا ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها، وتقدمها وارتقائها..

الوجيــه – ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تمــلأ من أموال الأمة لهذه الأغراض التي تذكرها، ولكنها تضن بمال هــي في حاجة إليه لإصلاح الســودان وبناء العمائر وتشــييد القصور وترقية كبــار الموظفين خصوصا الأجانب منهم وإقرار عيون الســياح الأوروبيين بالمناظر البهيجة والمشــاهد الجميلة، فلا ترى لها بدا من حمل تلك الحمالات على أعناقها بلا رحمة ولا شــفقة ولا نظر إلى ما تتكبده في هذا الســبيل ما يذيب الشحم، ويعرق العظم، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باســتبدادها وإرهاقها، فقد حكي عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين ســلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة وأنهم ضاقوا به ذرعا فأحضره في مجلســه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل، ثم أمر أن تنتزع من رأســه خصلة من الشعر مــرة واحدة فصرخ وتألم، فقال له: هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية، متفرقا تحتمله، لا مجتمعا تتألم له..

الكاتب – حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال في سبيله، وللآخرة خير وأبقى..

الوجيه – من أين يأتيني الثواب والأجر، وهل يثاب المرء إلا على قدر نيته وإخلاصه في عمله؟ وإني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من أحوالهم. ومارست من طباعهم، أننا لا نريد من بذل ما نبذل إلا رضا الحاكم، والتودد إليه، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة، وقضاء المآرب والحاجات مرة أخرى، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء في الإحسان والنفاق في المعاملة خطة قست معها قلوبنا، واستحجرت أفئدتنا، حتى إن أحدنا يكاد لا يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره البائس الفقير إلا أمام قاض فطن وشهود عدول وحتى زهد فينا الفقراء، ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا وجفانا نور الرحم والأقرباء، وأصبحت قصورنا في نظرهم قبورا يستدرون لها الرحمات، لا يرجون منها الصدقات. وأقفرت – مضايفنا، إلا من عربدة المطربين ورطانة المبرنطين فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله؟!

الكاتب – أتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟.

الوجيه – قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل..

الكاتب – أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف

الحــق وتتنكر له كأنك لا تعرفه، وتمد يــدك إلى الصواب حتى تكاد تلمســه ثم تعجز عنــه، فقد زعمت أن مجد القربى مــن أولياء الأمر باطل، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به، وما نهوضك إليه، ومالك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه، وسوء مغبته، ولقد كان لك طريق مختصر إلى الحد الصحيح والشرف الصميم، لو كنت أكبر منك همة، وأصــح رأيــا، وأقوى عزمة، فمجــد الكرم ليس بأقل شــأنا من مجد الســيف والقلم، ولا أرى أنك كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هــذا المجد الكاذب وما كان يصيبك في الأول من الشــقاء ما أصابك في الثانــي، فالكريم معان على أمره، ومبارك له في عيشــه، متى صح لــه معنى الكرم، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تســوقه إلى تفقد الضعفاء ومواســاة الفقراء، من حيث لا يبتغي على ذلك أجرا ســوى ما وعد الله به المحســنين من حســن المثوبة والأجــر، ورفع الذكرى في الآخــرة والأولى، ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجنتموها مــن دونها، وأبت لكم همتكم الضعيفــة أن يكون لكم ما كان لأمثالكم في الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجئ والمستشــفيات تســمى بأسمائكــم، وتســجل في صحيفة أعمالكم فتنالون بهــا ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة، فعاقبك الله على ذلك بأن ســلط عليكم من يعبث بعقولكــم، ويلعب بأهوائكــم، ويرغمكم على الإحســان إرغاما، من حيث يكــون له الغنم، وعليكــم الغرم، فلا ذكــرا حصلتم، ولا مالًا حفظتم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون.

الرسائل

كتاب في التقاضي:

أنا إن سألتك حاجتي، أعزك الله، وبسطت إليك يد رجائي، فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همةً وحزما، ونادرة الوجود كرما وفضلا، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت إليَّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد الحصر. ولقد مثلت، أيدك الله، بين أن أستشفع إليك بذوي الجاه عندك، والزلفى لديك وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير، وسجايا البر، فرأيت أن الثانية بك أحرى، وبفضلك أجدر، والسلام.

كتاب مقاطعة:

أتلقى كتابك وقد أبللت من مرض حبك، وصحوت من رقدة طال عليَّ الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت، فلم ترعني روائعك[1] ولا أجدى عندي اعتذارك، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة[2]

(١) أي لم تعجبني محاسنك.
(٢) الروعة: المسحة من الجمال.

وقلــبي هيبة، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك وكشــف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري، فجفت الدموع التي طالما أذللتها[1] بين يديك وقرت العين التي كنت أســاهر بها الكواكب شــوقا إليك، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا ما بقي في قلوب الناس من الوفاء، والحب شــجرة يغرسها الأمل في القلب، ثم يغذوها بمائه وهوائه، فلا تزال تشتجر أغصانها، وترف[2] ظلالها وترن أطيارها، حتــى يعصف بها عاصف من اليأس فتمــوت ولقد عالجت هذا القلب الشــموس[3] في الرجوع إلى سالف عهدك، وسابق ودك، فجمح جموح المهــر الأرن[4] وركب رأســه إلى حيث لا مطمــع في أوبته وله العتبى فيما فعل، فقد ملكني قياده برهة من الزمان فأســأت عشرته وخفرت ذمته، وأرغمت معطسه، وركبت به في سبيلك أخشن مركب، وأنهلته من جفائك وكبريائك شــر منهل فما هــو إلا أن أمكنته العزة فانطلق انطلاق الســجين من سجنه، والطائر من قفصه، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ويبلي الجديدان.

إذا انصرفت نفســي عن الشيء لم تــ ـكد إليــه بوجه آخــر الدهر تقبل

(١) أذللتها: أهنتها.
(٢) رف النبات: اهتز واضطرب.
(٣) شمس: امتنع وأبى.
(٤) المهر الأرن: النشيط.

كتاب تهكم:

علمت أن ساسانيا[1] طرق بابك بالأمس، وما زال يكيد لك ويماحلك، ويتغلغل في مواضع الضعف من قلبك، حتى خدعك عن نفسك، واقتطف زهرة من روضة مالك، وراح يفتر عن ثغر باسم، ورحت تقرع سن نادم، فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقته، وما هذا المذهب الجديد الذي اعتنقته، ومتى أقامك آدم وصيا على أولاده من بعده، تكسو عاريهم، وتشبع جائعهم، على أن الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء فكيف تسعهم خزائنك، وهل بين الدرهم الذي أعطيت، والدراهم الذي أبقيت، إلا حرف واحد[2]؛ فليت شعري من أين دهيت، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك، وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة، فإن كانت هي فالخطب عظيم، والبلاء جسيم، فإنك حيثما ذهبت وأنى حللت، لا تقع عينك إلا على يد شلاء، ورجل بتراء، وعين عمياء وصورة شوهاء، وثوب مخرق، وشلو ممزق، وطريح على التراب سقيم، وجسم أعرى من أديم، فإن لم تفارق الرحمة قلبك، فارق المال جيبك، فطفت مع الطائفين وتسولت مع

(١) النسبة إلى ساسان: وهو رجل كان معروفا بالفقر والبطر والاحتيال على الصدقات.

(٢) يشير إلى أن الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد هو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست إلا درهما على درهم.

المتسولين، ثم لا تجد لك راحما ولا معينا. فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك، ولا تنس أن تردد في صباحك ومسائك، وفي مستأنف خطواتك، وفي أعقـاب صلواتك، كلمة ابن الزيـات «الرحمة خور في الطبيعة»..

وعلمـت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لها فوك، ورقصت لها أشـداقك، فطرت إليها، ثم وقعت على خبزها وشـوائها، وفاكهتها وحلوائها، مثلج الصدر ثابت القدم، ساكن القلب، طيب النفس كأنك لا تعلم أنها لذة السـاعة، ومرارة العمر، وشبع اليوم، وجوع الأبد، وأنـك إنما طعمت ما في الحبالة من الحـب، تأكله اليوم ليأكلك غدا. فمن لك بالنجاة من مضيفك إذا جاءك يوما يتقاضاك دينه، وقد حفت بـه كوكبة مـن خلانه وصحبه، فطار لمرآه لبك، وتمشـى له قلبك في صدرك، وخيرك بين لحم شـاتك ولحمـك، فالفقر إن منحت، والعار إن منعـت وأعجب من ذلك أنك ما برحـت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه، فسمعت وطربت، ومن طرب شرب، ومن شرب وهب، ومن وهـب خرب، ولقد كان لك في انزوائـك واعتزالك، واكتفائك بقرصك وزيتك، وخلوتك بصندوقك في كسـر بيتك، حيث لا تزور ولا تزار، غناء عن هذه اللقمة التي أسـهرت ليلك، وأقضت مضجعك، وأقعدتك علـى مثل روق الظبي خيفة وحـذارا، فإياك والعـود إلى مثلها يطل غمك، ويسوَدُّ عيشك، والسلام..

كتاب يأس:

كتابـي إلى سـيدي ومـولاي، والنفس بـين جنة مـن الأمل تغن

أشـجارها، وترن أطيارها، وتشـتجر أغصانهـا، وتعتنق غدرانها، وهاجرة من اليأس تتلظى نارها، ويعتلج أوارها، وتحول بين الجفون واغتماضها، والجنوب ومضاجعها، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشـية الطائر الحذر، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره، قـرار الماء في نهايـة منحدره، وحالي كحال هـذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم، وسـرور وحزن، وقبض وبسط، ومد وجزر، أذكر الله ورحمته وإحسـانه، ورأفته وحنانه، فيشـرق لي مـن خلال ذكراه وجـه الحياة الناضر، وثغرها البارق، وجمالها السـاطع، وبشـرها الضاحـك، ثم أذكـر الدهر وصروفه، والعيـش وحتوفه، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيها من عثرات في الخطوات، ونكبات في الغدوات والروحات، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها، والقلوب وأمانيها، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي مـن أضالعي، ثم أنثـني على كبدي من خشـية أن تصدعا، فليت الله يصنع لي فيمطر عليَّ قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي، وأطفئ بها لوعتي، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحري[1] ونحري نشـوبا لا بسـتبقي بعده عرقـا نابضا، ولا نفسـا مترددا، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف، لا هو حي فيرجى، ولا ميت فيبكى..

يقولـون «ما أضيق العيش لولا فسـحة الأمل»، وأقول ما عذب الله

(١) السحر: الرئة.

عبـاده بنازلة القضاء، وصاعقة العـذاب، وطاغية الطوفان، والزلزال الأكـبر، والموت الأحمـر، والخوف من الجـوع، والنقص في الأموال والأنفـس والثمرات، مثل ما عذبهم بالأمل الباطل، وما ليلة نابغية، ضرير نجمهـا، حالك ظلامها، يبيت منهـا صاحبها على مثل روق الظبي خيفة وحذارا، فوق أرض تعزف جنانها[1]، وتحوم عقبانها، وتزأر سـباعها، وتعـوي ذئابها، وتحت سماء تتهـاوى نجومها، وتتـوالى رجومها، وتتراكم غيومها، بأسـوأ في نفسـه أثرا من رجاء كاذب يـتردد بـين جنبيه، تـردد الغصة بين لحييـه لا هي نازلة فيطعمها، ولا صاعدة فيقذفها..

قـد أصبحت أحسـد الوحـوش الهائمـة على وجوههـا في بطون الأودية، وقنن الجبال، أن أراها سـاربة في مسـاربها، سـارحة في مسـارحها، تتناول رزقها رغـدا من بوارق المصادفـات، ومفاجآت المقادير، لا يعنيها الأسـف على فائت من العيـش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق، قد قنعت من الماء بالكدر، ومن العيش بالجشـب[2] فتسـاوى لديها شـحمها ولحمها، وشـيحها وقيصومها، وسـعدها ونحسـها ونعيمها وبؤسـها، فما تحفل بنـوازل القضاء، ولا رجوم السماء، ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها؟.

فمـن لي بهـذا العيش من عيـش مثلي منه كمثـل رجل زلت به قدمه فسـقط في جوف بئر بعيد غورها، نـاء مكانها، فما زال يتخبط

(١) جمع: جان.
(٢) الجشب: الخشن من الطعام.

ويضطرب، ويهب ويثب حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها. ثم تلمس أخرى غيرهـا فما وجدها، حتى بلغ منه الجهـد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى، فسقط، فخاف الغرق فعاد إلى تلمسه، فعاد إلى سـقوطه، فلا هو بالغ رأس البئـر فينجو من الموت، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء..

اضرب بطرفك حيث شـئت من الناس هل تبصر إلا صريعا صرعه أملـه؟ أو قتيلا قتله رجاؤه؟ أو صديقا يشـكو غـدر صديق كان يعده لنوائـب الدهر فأصبح عون النوائب عليـه، أو باكيا يبكي وليدا كان يرجوه لمسـتقبل دهره ففجعته الأيام فيه، أو سـاعيا دائبا وراء غاية يطلبهـا من الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها، ولا يمسـك بها حتـى تفلت من يده، أو سـاهرا متململا لولا أملـه أن تنيله الأيام ما يشـتهيه من هواه ما بات ليله شـاكيا باكيا، داعيا مناجيا لا تراه إلا عين السماء، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء..

هـذه حالتي، وذلك همي، وهذا ما وسـوس لـي أن أعتزل الناس جميعا، وأفارق عشـيرتي وصحبتي، ويراعي ومحبرتي، علني أجد في البعد عن مثارات الأماني، ومباعث الآمال، راحة اليأس، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء..

فهـا أنا ذا قابع في كسـر بيـتي ولا مؤنس لي إلا وحشـتي، ولا أنيس إلا وحدتي أتخيل البيت قبرا، والثوب كفنا، والوحشة وحشة المقبوريـن في مقابرهم؛ لأعالج نفسـي على نسـيان الحياة، وأمانيها الباطلـة، ومطامعهـا الكاذبة، حتى يبلغ الكتـاب أجله، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك، والسلام.

الكلمات

الجرائد:

لا أرى الجرائـد في مصـر إلا ناديا من أنديـة القمار ولا هؤلاء الكتـاب إلا جماعة مـن اللاعبين قد وضعـوا رءوس المصريين على مائدة الألعاب كمـا توضع الأكر على طاولة «البلياردو». ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها فيكسبها في الصباح زيد ويخسرها في المسـاء عمرو. وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدورالنحس دورته عليهم جميعا، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي.

عبد الحميد:

حضرت منذ أشـهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشـيد للسـلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والرفق والإحسـان ويدعو له بسـلامة عرشه. وطول بقائه. فمـا سمع الناس اسمه حتى هتفوا له هتافا يصم المسـامع وصفقوا له تصفيقا كاد يضم أضلاع المرسـح بعضها إلى بعض. وحضرت ليلة أمس منظرا من مناظر الصورالمتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجـلا ظالما سـفاحا ضعيف الهمة سـاقط النفس زمن المـروءة جبانا مستطارا. ورأيتهم قد عمدوا إلى صورته فجعلوها مواطئ أقدامهم.

ومضـارب سـيوفهم. فما رأى النـاس هذا المنظـر حتى راق في أعينهـم وابتهجوا لمـرآة ابتهاجا ملأ فضاء صدورهم، فتمشـى في أعصاب أدمغتهم، حتى وصل إلى أعصاب أيديهم. فصفقوا له تصفيقا شديدا بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل.

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالما أو عادلا. كريما أو لئيما. شريفا أو وضيعا، وإنما أعلم أني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمـره مـا دام الناس عامتهـم وخاصتهم.. كتابهم وشـعراؤهم. علماؤهم وجهلاؤهم. هم الناس الذين يقول فيهم القائل.

والنـاس مـن يلق خـيرا قائلـون له مـا يشـتهي ولأم المخطئ الهبـل

الشهرة والفضل:

لا يمكن أن تكون الشـهرة بحال من الأحـوال ميزانا للفضل في مصـر خصوصا في عالم الأدب، ولن يجـري الفضل والذكر في ميدان واحد إلا إذا سـلم السـباق من كيد العابث وخدعـة الأريب. وأنى لنـا ذلك وفي شـعراء مصر من يغتصب الشـهرة اغتصابـا ويلزقها بنفسه إلزاقا وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته. وألبسوه حلته. بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه. وإمتاع وجدانـه. فلا يترنم بقصائـده في المنتديات والمجامع. ولا يبتاع من الصحف الأسماء والألقاب. ولا يسـتخدم الكُتَّاب لإطرائه والإشادة بذكره. ولا يتمم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره.

فترى للأول في هذا البلد الساذج دويا كدوى الرعد. وترى الآخر مطرحا مجفوا لا يؤبه له. والدر ملء الصدف أغلى قيمة وأرفع قدرًا من جميع ما على وجه الأرض من ألواح البلور. وإن كان ملء العيون حسنا وبهاء. ورونقا وماء.

موت العظماء:

لا أحسب أن الله تعالى يريد بمصر خيرا وهو يكورشموسها شمسا شمسا. ويستنزل كواكبها كوكبا إثر كوكب، ولا أحسب أن المنايا كما يقول الأعشى خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر ويهرم، بل هي ناظرة مبصرة عالمة بما تأخذ وما تترك، ولو كانت عشواء. كما قول الأعشى لأعجزها الاختيار. وأخطأها الانتخاب. ولداولت بين الأخيار والأشرار. والأبرار والفجار.

ليست هذه العشرة الملايين التي نراها إلا أطفالا رضع. وسوائم رتع. لولا علماؤها. وأذكياؤها فيها الذين يقودونها إلى الخير ويأخذون بيدها في ظلمات الحياة.

أستغفر الله فالعلماء كثير والأذكياء أكثر منهم، وإنما عماد الأمة وقادتها رجالها العظماء العقلاء الذين وهبوا أنفسهم لها هبة خالصة غير مسترجعة، وباعوا في سبيلها منفعتهم وسعادتهم. وأرواحهم وأموالهم. وهم هم الذين يعجل إليهم الموت ويعصف بهم ريب المنون.

كان رجال مصر في هذا العصر العقد المنظوم وهي سلكه فانقطع وتناثرت حباته متتالية متتابعة. أو الدائرة الشمسية سقط منها

كوكب فاختل نظام التجاذب بين كواكبها فهوت في الفضاء، وطارت في الأجواء. لا يلوي بعضها على بعض.

فكاهة:

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ليحلق له رأسه. وكان عنده جماعة من زائريه فأجلسه على كرسي أمام مرآة وأمسك بالموس وأنشأ يحلق له رأسه حلقًا غريبًا لا عهد له به من قبل. فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة حتى ريع الرجل وظن أن الحلاق أصابه مس من الجنون. فارتعش بين يديه وخاف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تحمد عقباه. واعتقل لسانه فما استطاع أن يسأله عن سر عمله هذا.

فما انتهى من أشكاله الهندسية ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه وقال لهم كأنه يتمم حديثا سابقا بينه وبينهم «لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس الزبون» هنا طوكيو. وهنا بورأرثر. وهنا انكسر كرو با تكين. وهنا انتصر أوياما. وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي. وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان. وهنا أخذ يتكلم بحدة وحماسة عن

شــجاعة اليابان وبســالتهم ثم أردف كلامه بقوله «وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية» وضرب بجمع يده أم رأس الزبون. فقام صارخا يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين. والروس واليابانيين.

لا أعلم إن كان المحدث هازئا أو مجدا وإنما أعلم أنه أجاد التمثيل

الأقسام:

لا أعــرف فرقا بين حنث الحانث في يمينــه. وكذب الكاذب في حديثه. كلاهما ضعيف المنة. وكلاهما ساقط الهمة. وكما لا يستطيع الــكاذب أن يكون صادقا. كذلك لا يســتطيع الحانث أن يكون بارا، وناقض العهد أن يكون وفيا، فخداع من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشــأن في مواقف الأقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف، وأنه يتحــرج في الحنث ما لا يتحرج في الكذب. فإن من يســتصغر جرم الكذب لا يستكبر بعده جرما.

الدين:

أيها الناشــئ: إن من الناس قوما قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين وســلطان أمره ونهيه فخرجوا عليــه ونبذوا طاعته، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استثقالا وتبرما

لا تقلدا وتمذهبا وما هم بمنكريه ولا جاحديه. فاعلم أن الله سيبتليك بهم وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه وسيخيلون لك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة وأن تنال الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها إلا إذا تنكرت لدينك وتسلبت منه وخفرت ذمته. فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة. واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئا إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء وأنواع الآلام والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة. ولا يئل من عثرةٍ إلا إلى عثرة. لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته. وتداركت عثراته. ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة:

قال لي بعض الناس إن قوما يغرقون في مدحك فهلا زجرتهم. فقلت له إن آخرين قد أغرقوا في ذمى فلم أصنع شيئا. فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضا فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها.

أمس واليوم:

مثلنا ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين

الحديث ومــن بعده كمثل رجل ضل به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب. حالكة الجلباب، قد تجسد ظلامها.

حتى كاد يلمس بالراح. فانقلب جوهرا بعد إذ هو عرض. فأصبح كأنما هو فحم سائل. أو مداد جامد. فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلــك الديجــور ترفعه النجــاد. وتخفضه الوهــاد. لا يرى علما فيهتدى به. ولا يتنور نجما فيعتمد في سراه عليه.

وإنه لكذلك قد اســتوت في نظره الجهات الســت فســماؤه أرض وأرضه سماء. ووراءه أمام وأمامه وراء. و إذا بقرن الشــمس قد نجَم في جبهــة الأفق وأفرغ في ناظره المملــوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشــعته اللامعة. فعشا بعد أن كان بصيرا، فما أغنى عنه ذلك الضياء شــيئا. وما زال في ضلاله القديــم. إلا أن ذاك ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء. وهو أضــل الضلالين. وأقتل الداءين. فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء. فأما وقد أصبح الدواء داء. فلا أمل في الشفاء.

لــو بــغــير المــاء حــلــقــي شــرق كــنــت كــالــغــصــان بــالــمــاء اعــتــصــاري

دمعة على الأدب:

مــات بالأمس إمام الشــعر البــارودى وإمام النثــر محمد عبده فجزعنا ما جزعنا. وســكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا. ثم كفكفنا مــن تلك الدمــوع. وخفضنا من زفرات الضلــوع. حينما سمعنا قول

القائــل إن في الباقي عزاء عن الفاني. و إن في الأبناء خلفًا من الآباء. ولقد كر على موتهما الشهر بعد الشهر. والدهر إثر الدهر. والأدب جاث في مكمنه جاثم. لم يُبعث من مرقده بعد ما قبرناه. ولم ينشر من قبره بعد ما وارياه. فتساءلنا أين الباقي الذي يزعمون. والخلف الذي يذكرون.

أين فطاحل اللغة الأدبية لا السياســية. وأرباب الأقلام العربية لا الأعجمية.

عذرنا المويلحى الكبير واليازجي لأنهما ماتا ولحقا بصاحبهما. فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير.

ما مات منهم أحد وإنما كانت حياة الرجلين. حياة الصناعتين. وكان لوجودهما سر من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها. والأقلام فيجريهــا، وكانــت منزلتهما من الأحياء منزلــة الأم من مصابيح الكهرباء. تشتعل المصابيح بتيارها. وتضيء بأسرارها. فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها عمَّ الظلام واشــتد الحلك، والمصابيح كما هي جسم بلا روح. ولفظ بلا معنى.

أما شــوقي فقد طار في جو غير هــذا الجو. وهام في واد غير ذلك الوادي، وما زالت تعبث به الأنواء. حتى أغرقته في شبر من الماء، وأما حافظ فقد انقضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء. أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام.

وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان. وأفانين الأشجان. وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التأليف. هذا بصهاريجه. وذاك بفتراته. ثم لحقا بالسابقين، ومضيا على أثر الماضين.

أين سكانك لا أين لهم أحجازا أوطنوها أم شامًا

أين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها. ونهصر أغصانها، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها. وأين البلابل التي كانت تتنقل بين أشجارها فتطرب بالأغاريد. وتستهوي بالأناشيد.

فاسألنها واجعل بكاك جوابا تجد الدمع سائلا ومجيبا

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهؤلاء الأدباء. يحزنون فلا يبكون. ويطربون فلا يضحكون.. ويتألمون بلا أنين. ويعشقون بغير حنين.

أيطرب البلبل فيغرد. ويشجى الحمام فينوح، ويطرب الشاعر أو يشجى الكاتب. فلا ينطق لسانه ولا يهتز قلمه.

لما أسن عمر بن أبي ربيعة ورأى أن الغزل والتصابي غير لائق بشيبه ووقاره عزم على هجره فما استطاع إلى ذلك سبيلا وغلب على أمره كما تغلب المرء غرائزه وسجاياه. فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتا من الشعر إلا أعتق رقبة. فشكا إليه رجل حبا برح به فحن واهتاج ونظم أبياتا في شأن الرجل ووجده ثم أعتق عن كل بيت رقبة.

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبي ربيعة وهم في شرخ الشباب

وإبــان الفتــوة. إن كانوا فعلوا ذلك فأســأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج أشــجانهم فتحنث أيمانهم. والأمــة كفيلة لهم بوفاء النذور وكفارات الأيمان.

وذو الـشـوق القديم وان تعزى مـشـوق حـين يلقي العاشقينا

الانتقاد:

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان. أحدهما يتعلق بالناقد والآخــر يتعلق بأثر النقد في الأذهان. أما الأول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب مــن حيث ذاته. فلو لم يكن للكتاب صاحب لانتقده. وهنــا ينتقده باعتبار شــخص مؤلفه، أي أنــه لا ينتقد الكتاب بل صاحــب الكتاب في كتابه. وأما الثاني وهــو أثر طبيعي للأول فهو أن للانتقــاد هناك أثرا ظاهرًا في الكتاب من حيث رواجه وكســاده. وشــهرته وخموله. فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله. وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرا فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد، وهو أن الكتاب جليل القدر سني القيمة ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل. لذلــك رأيت كثيرا مــن عقلاء الناس لا يرضون عن أنفســهم في هذا البلد إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم. بل رأيت من يتوســل إلى أحد الناقديــن أن ينتقــد مؤلفه. بــل رأيت من يبلغ به الأمــر أن ينتقد كتابه بنفســه بتوقيع منحول. أولئك الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم في نفوسنا. أما الذين يغضبهم الانتقاد ويحرج صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذلك شيئا.

الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشون في نفوس الناس أكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون.

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدّخلة في حياة الآخرين، فلو فتش عنها لا يجد لها أثرًا إلا في عيون الناظرين، أو آذان السامعين، أو أفواه المتكلمين.

يخيل إليّ أن الإنسان لو علم أن سيصبح في يوم من أيام حياته وحيدًا في هذا العالم لا يجد بجانبه أذنًا تسمع صوته، ولا عينًا تنظر شكله، ولا لسانًا يردد ذكره؛ لآثر الموت على الحياة عله يجد في عالم غير هذا العالم – من آذان الملائكة أو عيون الجنة – مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها.

إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين، فأي مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكثرة متعددة، إنما هى حياة واحدة يتفق جوهرها، وتتعدد صورها، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قددًا، ونحسب كل موجة من أمواجه قسمًا من أقسامه، فإذا دنونا منه لا نرى غيره، ولا نجد لجزء من أجزائه حيزًا مستقلا، ولا وصفًا ثابتًا.

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية، إلا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه وأطواره وآرائه وأعماله، الذي كثيرًا ما نسميه مجنونًا، فإن رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفًا، ونريد بذلك أنه نصف مجنون، فهو الذي يتولى شأن الإنسان، وتغيير نظاماته وقوانينه؛ وينتقل به من حال إلى حال بما يغير من عاداته ويحول من أفكاره.

أيه قيمة لحياة امرئ، لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس، فيأكل ما لا يشتهي، ويصدف نفسه عما تشتهي، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر، وينام حيث لا يطيب له المنام، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره، ويقصم ظهره، ويشرب من الشراب ما يحرق أمعاءه، ويأكل أحشاءه، ويضحك لما يبكي ويبكي لما يضحك، ويبتسم لعدوه، ويقطب في وجه صديقه، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك – أي علم المداهنة والملق – زمنًا لو أنفق عشر معشاره في دراسة علم من العلوم النابغة لكان نابغته، المبرّز فيه حرصًا على رضاء الناس، وازدلافًا إلى قلوبهم.

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها، وما جناها عليهم إلا كلف تاركيها برضاء شاربيها، وما كان الترف خلقًا من الأخلاق الفطرية في الإنسان ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فتترفوا، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه وأثقال الحياة وأعبائها، ما نغص عليهم عيشهم وأفسد عليهم حياتهم، وإنك

لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع، يبيع منزله في نفقة عرس ولده أو ابنته، فلا تجد لفعله تأويلا إلا خوفه من سخط الناس واتقاءه مذمتهم، وكثيرًا ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الأذكياء، وأطفأ عقول العقلاء، وكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملا متلففًا لا يجرؤ على إظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هزء الناس وسخريتهم، وعاقل لا يمنعه من الإقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ونقمة الناقمين.

وما أعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها إلى صحيفة من الصحف أيًّا كانت، ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئًا، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأي الناس فيها، وما حديثهم عنها، وهل سخطوا عليها، أو رضوا بها؟ ولا يمسي متنقلا في المجامع والأندية، مسائلا عنها كل غاد ورائح، ليجد خيرًا فيضحك ويستبشر، أو شرًا فيبكي ويبتئس، بل كثيرًا ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم ساكنًا هادئًا، كأنما يحدثون عن غيره، ويعنون شخصًا سواه، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين: أحسنت وأجدت، وأسأت وأخطأت، بل قلما رأيته على كثرة لصوقي به، وتفقدي مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تعلقه على آرائه وأفكاره، من مدح أو ذم،

حتى كدت أحمل تلك الحالة الغريبة من أمره على البله والغفلة، أو العظمة والكبرياء، لولا أني فاتحته مرة في ذلك وسألته: لم لا تحفل برأي الناس فيك؟ ولم لا تقرأ ما يكتبون عنك؟ فأجاب: إنني ما أقدمت على الكتابة للناس في إصلاح شؤونهم، وتقويم معوجهم، إلا بعد أن عرفت أني أستطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم، للناس خاصة وعامة، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم، فلا أفرح برضاهم، ولا أجزع لسخطهم، ولأني لم أكتب لهم، ولم أتحدث إليهم، ولم أشهدهم أمري، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير أو شر، لأني راض عن طريقتي التي أكتب بها رسائلى، فلا أحب أن يكدرها عليَّ مكدر، وعن آرائي التي أودعها رسائلي، فلا أحب أن يشككني فيها مشكك، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما أستطيع أن أميز به بين مخلصهم ومشوبهم فأقبل على الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه؛ فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة محدودة، ثم علم أن على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيارها وتتألق أزهارها، وأن على يساره غابًا تزأر أسوده، وتعوي ذئابه، وتفح أفاعيه وصلاله، فمشى قدمًا لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره؛ ولا يسرة

مخافة أن يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه، وأما عامتهم: فهم بين ذكيّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع أحسنه؛ فأنا أحمد الله في أمره؛ وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه، ولا يسمع إلا ما يطربه، فأكل أمره إلى الله وأستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسرًا؛ فأنا أكتب لا لأعجب الناس، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثرًا مما كتبت، فلو أن هذه الملايين الاثنى عشرة التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضاء عني، ثم رأيت من بينها رجلا واحدًا ينتفع بما أقول لكان الواحد المستفيد آثر في نفسي من الملايين المعجبين، أتدري لمَ عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون فى مدارسهم وأنهم جالسون بين أيدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان؛ فترى واحدًا منهم يكتب وهمه المالئ قلبه أن يعجب اللغويين، أو يروق المنشئين، أو يطرب الأدباء، أو يضحك الظرفاء، ولا يدخل في باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذي يريد أن يسلكه إلى قلوب الناس الذين يقول إنه يعظهم أو ينصحهم أو يهذبهم أو يثقفهم، ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم؛ وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم؛ فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها، وعن

فسادها إلى صلاحها، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملًا سيفه كل يوم إلى الجوهري ليرصع له قبضته أو الحداد ليشحذ له حدّه، أو الصيقل ليجلو له صفحته، ولا تراه يومًا في ساحة الحرب ضاربًا به.

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهبًا من مذاهب الخير وطريقًا من طرق الهداية للضال عنها لو أن الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم، والغالب على أمرهم، لو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وأقوالهم، فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزانًا يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه، أحبوه أم أبغضوه، فإنما يبكي على الحب النساء.

القِمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعيَّ ويريدون منه جواز أن يكون الإنسان مجنونًا في بعض شئونه عاقلًا في باقيها، وعندي أنَّ الرجل إما أن يكون عاقلًا أو مجنونًا، ولا ثالث لهما.

العقل قوةٌ يقتدر بها المرء على الاستمساك في مزالق الشهوات وبين مهابِّ الأهواء، فموقفه أمامها موقفٌ واحد، فإما أن يغلبها جميعَها أو يغلبُه جميعُها.

أما ما يراه الرائي أحيانًا من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتارًا يستهلك نفسه ويستهوي عقله، وزهده في بعضها زهد الأعفَّاء المستمسكين؛ فذلك لأنه رغب في الأولى فاسترسل وراء رغبته، ولم يدعُه إلى الأخرى داعٍ من خواطر قلبه ونزوات نفسه، ولو دعاه لخفَّ إليه ولبَّاه، ولن يسمى الرجل زاهدًا أو عفيفًا إلا إذا أمسك نفسه عن شهوةٍ تدعوه إليها فيدافعها، وتتلهب بين جنبيه فيطفئها.

لا تقل: إنَّ السكير عاقلٌ إنْ رأيته غير فاسقٍ ولا عاهر، واعلم أنه لا يشتهي الفسق، ولا تجذبه إليه جواذبه، ولو اشتهاه لوقف من المواخير موقفه من الحانات. ولا تقل: إنَّ الفاسق عاقلٌ إنْ رأيته غير سارقٍ ولا مختلس؛ فإنه لا يحب السرقة ولا الاختلاس، ولو أنه أحبهما لكان في تسلق الدور والقصور أبرع منه في التسلل إلى مكامن

الفسق والفجور. ولا تقل: إنَّ المقامر عاقلٌ إنْ رأيته لا شاربًا ولا فاسقًا؛ فإنَّ القِمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلةً لسواها، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين وأفسق الفاسقين.

لو كنتُ من المصانعين الذين يزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ويصبغونها من ألوان التعليل، لما استطعت أن أصانع المقامر؛ لأن حاله من الجهل الفاضح والغباوة المستحكمة أبعد الحالات عن عذر المعتذرين، وتأويل المتأولين.

أيُّ عذرٍ يعتذر به المعتذر عن رجلٍ يريد أن يمشي في طريق الغنى، فيمشي في طريق الفقر؟ والطريقان واضحان مَعْلَمَانِ لا غموض فيهما ولا إبهام.

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار إلا بعد أن استقرَّ في نفسه أنَّ الدرهم الذي في يده سيتحول بعد برهةٍ من الزمان إلى دينارٍ يعود به إلى أهله فَرِحًا مغتبطًا، وأحسب أنَّ العقول العشرة مجتمعةً ومتفرقةً تعجز عن إدراك سر هذه العقيدة ومثارها.

إن كان يؤمل الربح لأنه رأى عن يمينه رجلًا قد ربح، فَلِمَ لا يخاف الخسران لأنه رأى عن يساره مائةً خاسرين؟! وإن كان يضحكه منظر الربح لأنه رأى في بعض مواقفه أحد الرابحين مبتسمًا، فلمَ لا يبكيه منظر أصدقائه ورفقائه الخاسرين وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود الحرب بين يدي القذائف؟

ما أشبهَ المقامرَ الذي يطلب من الدينار الواحد مائةً بالكيماويِّ الذي يطلب من القصدير فضةً، ومن النُّحاس ذهبًا! كلاهما يتاجر بالأحلام في سوق الأوهام، فيربح ربحًا مقلوبًا، ويكسب كسبًا معكوسًا، وما أشبههما جميعًا بذلك الرجل الذي علم أنَّ في صحراء من صحاري إفريقية كنزًا دفينًا لا تعرف له بقعةٌ، وليس عليه دليلٌ، فحمل فأسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفد قوته وتستهلك مُنَّتَهُ، وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ منها كر الغداة ومر العشي، حتى إذا بلغ مستقرها وعلم أنه لم يعثر بضالته تركها، وبدأ يحفر غيرها بجانبها، فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأولى، وهكذا حتى أدركه الموت وهو في بعض تلك الحفر، فكان هو نفسه الكنز الدفين في تلك الصحراء، إلا أنه كنزٌ لا يطمع فيه طامعٌ ولا يرغب فيه راغب!

إن كنت تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتَلاقي الضدين، فاعلم أنَّ المقامر في آنٍ واحدٍ أجشع الناس وأزهد الناس؛ فلولا حبه المالَ لما هان عليه أن يبذل راحته وشرفه وحياته في سبيله، ولولا زهده فيه لما أقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغايةٍ يطلبها، ولا لمأربٍ يسعى إليه.

أنا لا أريد أن أنصح إلى المقامر بترك القِمار؛ لأني أعتقد أنَّ من يملك عقلًا مثل عقله وفهمًا مثل فهمه لا يستطيع أن يفهم كلمةً مما أقول. مَن عجزت حوادث الدهر وعبر الأيام عن أن ترد عليه ضالَّة

عقله وتهديه السبيل إلى نفسه فلن تنفعه كلمة كاتب، ولا موعظة خاطبٍ. وإنما أريد أن أقول للذين لم يخطوا خطوةً واحدة في هذا الطريقِ الوعر حتى اليوم: «لا تقامروا جِدًّا ولا هزلًا، فإن هزل القمار يجرُّ إلى جِدِّه، ولا تمروا بمعاهد القمار، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولا تصاحبوا المقامرين فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا مِلَّتَهُمْ، فإن فعلتم خَسِرتم مالكم وشرفكم وعزيمتكم وحياتكم، من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوض عليكم ما خسرتم، فارحموا أنفسكم إن كنتم راحمين، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين..

الأوصياء

مرض فلانٌ مرض الموت، فلم يحفل بالمَنِيَّةِ؛ لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها، ولأن الثمانين قد ألحَّت عليه بصبحها ومسائها وليلها ونهارها، فلم تترك له خيطًا من خيوط الأمل ولا شعاعًا من أشعة الرجاء، لولا أنَّ بين يديه ولدًا صغيرًا في السابعة من عمره قد ماتت أمه من عهد قريب، وللشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حنينُ الإبل إلى أعطانها، فنظر إليه وهو يحوم حول فراشه نظرةً طويلةً لم يسترجعها إلا مبللةً بالدمع المنسجم، ثم زفر زفرة شديدة خُيِّلَ لرائيها أنها الزفرة الأخيرة، وأنشأ يقول:

أيْ بُنَيَّ، مَن لي بقلبٍ يرعاك مثل قلبي، وعينٍ تسهر عليك مثل عيني، وروحٍ ترفرف فوق رأسك مثل روحي، ونفسٍ تضم جوانحها عليك مثل نفَسي؟!

أيْ بُنَيَّ، كأني بركب الموت وقد نزل بي وحلَّ بساحتي، وكأني به وقد احتملني من فضاء القصر إلى مضيق القبر، ومن نور الحياة إلى ظلمة الموت، وكأني بك وقد طفقتَ تَنْشُدُني فلا تجدني، وتفتش عني فلا تراني، ففزعت وارتعت، ثم صرخت فصعقت، فلم تجد بجانبك من يمسح دمعك، ويخفف حزنك.

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه ورحمته وحنانه، فَأَكِلُ إليه أمرك، وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يأنس به ويستخلصه لنفسه، وقد سمع آخر نجواه، فقال له: «هون عليك أيها الصديق، فأنا صديقك الذي تَنْشُدُه، وأنا والد ولدك من بعدك، وخليفتك بعد الله عليه.» ثم ترامى على فراشه يبكي لبكائه، وينشج لنشيجه. فاستنار قلبه بنور الأمل، وقال: «أحمدك اللهم فقد رحمت ولدي، وحفظت بيتي.»

وما هي إلا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده، ثم أجاب دعوة ربه تاركًا في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه وماله وولده.

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقًا له في العامين الأخيرين من أعوام حياته بعدما رآه يُكثر الاختلاف إليه ويطيل اللبث بجانبه، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه، ويخفُّ لقضاء حاجاته ولُبَانَاتِه. ذلك إلى ما كان يراه مُتَجمِّلًا به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات، والتسبيحات المتواليات، وعفةٍ حتى عن لقمةٍ من الزاد يصيبها على مائدته، وتورُّعٍ حتى عن جرعةٍ من الماء يتجرعها في حضرته، فاستخلصه لنفسه، وأنزله من قلبه المنزلة التي لا يجاوره فيها غير ولده، وأصبح آثر الناس عنده، حتى لا يستطيع فراقه لحظةً، ولا يصبر عنه ساعةً، إلى أن أحس باقتراب الأجل، فأوصاه بما أوصى، وعهد إليه بما عهد.

هذا تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ، أما تاريخه بعد مماته، فَسَأُسْمِعُكَ منه ما تهوي له الأفلاك عجبًا وتخرُّ له الجبال هدًّا.

لم تكن صلاته إلا رياءً ونفاقًا، وركوعه وسجوده إلا كيدًا ودهانًا، وعفته وزهادته إلا حِبالةً نصبها لِيَعْلَقَ بها عقل الشيخ وقد علق، فيسلبه ماله وولده وقد فعل. وما كان اختلافه إليه ولا تردده عليه إلا طمعًا في هذا المصير الذي صار إليه، فلما علم أنْ قد تم له من أمره ما أراد، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود، ويبتاع به لنفسه ما شاء الله أن يبتاع من قصورٍ ودورٍ وبساتين وضياع، فَنَبُهَ ذكرُه بعدما كان خاملًا، ونبت ريشه بعدما كان عاريًا، وأصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يُذِلُّ من يشاء ويُعِزُّ من يشاء.

أما شأنه مع الولد، فقد علم أنه سيبلغ عما قليلٍ أشده، ويملك رشده، وأنه سيقطع عليه لذته، ويقف له موقف المعترض سبيله، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم يرَ له بدًّا من أن يعد لذلك اليوم عدَّته، فعمد إلى الولد فقطعه عن المدرسة؛ لأنه لا يحب أن ينشأ متعلمًا. ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الشراب؛ لأنه لا يحب أن ينشأ عاقلًا، وما زال يُنْفِقُ عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجابٍ، حتى عَلِقَ برأسه الشراب علوق السلاسل بالصدور، فأصبح بين الحانات والمواخير كالطائر بين أغصان الأشجار لا يرسل الساق إلا ممسكًا ساقًا.

فكأنما وَكَّلَ بعقله مقراضًا يقرض له كل يوم منه قطعةً حتى كاد يأتي عليه، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال

الوصيُّ على القاصر قَيِّمًا على المعتوه. ولم يبذل في سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لُقَيْمَاتٍ ألقاها من فتات تلك المائدة إلى المجلس الحسبيِّ، فأدخله تلك الجنة الزاهرة بغير حسابٍ ولا عقاب.

شرع الله شريعة الحَجْرِ على السفهاء والمعتوهين، وإقامة القوامِ عليهم رحمةً بهم، فاستحالت على يد المجالس الحِسْبِيَّةِ نقمةً عليهم، وأصبح اللص الذي لا يحسن صناعة فتح الأقفال، ويتقي مغبَّة تسلق الجدران قادرًا على أن يسرق ما يشاء حينما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن الوقوف أمام محكمة الجنايات، وجرِّ الأثقال في غيابات السجون. وانتقلت الثروات العظيمة من أيدي أصحابها؛ مخافةَ أن يسرفوا فيها، إلى أيدي آخرين يبددونها تبديدًا، ويمزقون أديمَها تمزيقًا، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسبٍ أو وشيجة رحم، حتى أصبح السعي في جمع المال في هذا العصر وادِّخاره للوارثين عَمَلًا من الأعمال الباطلة، وضربًا من ضروب الجهل الفاضح، فَمَنْ لِي إنْ أنا دبَّرت المال وجمعته ألا يكون وارثي فيه من بعدي لصًّا من أولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي أن أعيش إلى أنْ أدرك ولدي فأتولى أمر تربيته بنفسي قبل أن يظفر به في حداثته ظفرٌ جارحٌ من أظفار الأوصياء فيميت نفسه ويقتل عقله ويفسد عليه شأن حياته، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها، ويزعج عظامي في مرقدها؟

فلقد حدثني من قصَّ عليَّ تلك القصة الماضية أنَّ ذلك الوصيَّ لما علم أن قد تم له من الحَجْرِ على ذلك الغلام ما أراد، عَمِدَ إلى تزويجه من فتاةٍ حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أنَّ له في ذلك مأربًا من المآرب الفاسدة. فما كادت تخلع العروس خلعة عرسها حتى أنشأ يختلف إليها، ويكثر من زيارتها في الجناح الذي تسكنه في القصر بما له عليها من حق الولايه والرعاية والنظر في شئونها ومرافقها. ثم ما زال يَخْتِلُهَا عن نفسها، ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بحبالته كما علق بها غيرها من قبلها؛ فَفَرِكَتْ زوجَها، وبرِمت به، فرابه من أمرها ما رابه، فرصدها حتى عرف موطن سرها وموقع هواها، فشكا فلم يجد راحمًا، فكان يقضي كثيرًا من لياليه في غرفةٍ من غرف القصر واجمًا مطرقًا، مسلمًا رأسه إلى ركبتيه ودمعه إلى خديه، لا سمير له ولا مؤنس إلا نغمات الضحكات التي كان يسمعها في غرفة زوجته، فتارةً يَثِبُ وثبة الأسد، فيثير في القصر ثائرةً شعواء تضج لها جوانبه، فيتسارع إليه الخدم فيضربون على يده وفمه بأمر سيدهم، وأخرى يعود إليه بَلَهُهُ فينظر إلى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب.

مَرَّتْ على تلك الحوادث سنواتٌ عديدة استأثر فيها ذلك الوصيُّ بتلك الدائرة الواسعة، وألحَّ عليها بِكَلْكَلِهِ حتى اجتزَّ وَبَرَها، ثم استكشط جلدها، فلم يبقَ منها إلا هيكل العظام. وعلم أن قامت

قيامة الناس عليه، وأنَّ قصَّته مع زوجة الغلام وماله قد ملأت مسمع الخافقين، وأنَّ نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول، عمد إلى حيلةٍ شيطانية ختم بها تلك الرواية بمثل ما تختم به الروايات المحزنة.

تفتَّح للغلام بعد انقباضه، وابتسم إليه بعد تقطيبه، وابتاع له ما اقترحه عليه من ثوبٍ فاخر، ومركبٍ فارهٍ، ومزاهر وعيدان، وكئوس ودنان. ثم خلا به في ساعةٍ من ساعات نشوته وارتياحه، فقال له: «أيها الصديق قد آن أوان قيامك بشأنك وانفرادك بأمرك، فَاكْتُبْ إلى المجلس الحِسْبيِّ رقعةً تطلب فيها رفع الحَجْرِ عنك، واكتب توقيعك على هذه الجريدة؛ جريدة الحساب.» فداخل الغلامَ من السرور والغبطة ما طار بِلُبِّهِ، فكتب الأولى ووقع الأخرى، ثم أوعز الوصيُّ إلى المجلس الحِسْبيِّ بتلبية طلبه، فلبَّاه وقضى برفع الحَجْرِ عنه، فاستقبل الغلام تَلك النعمة استقبال الظامئ كأسَ الشراب. وكان لا بدَّ له من أن يشرب حتى يَبْشَمَ، ففتش بين يديه عن مالٍ ينفقه، فلم يجده. وكان الرجل قد وكَّل به عونًا من أعوانه يداخله، ويتحين فرصة حاجته إلى المال فيمتحه، فكان يعطيه باليمين، ويأخذ منه صكَّ البيع باليسار. فما زال هذا يعطي وذاك يأخذ، حتى أصبح نصف تلك الدائرة بعد عامين اثنين مِلْكًا لِعَوْنِ الوصيِّ اليوم، وللوصِيِّ غدًا بثمنٍ لا يساوي عشر مِعْشَارِها، بل بغير ثمنٍ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها وأنفق عليها إلا ثمرتها؟!

هنالك قام الوصيُّ وقعد ونادى في الناس بصوتٍ يشبه صوت الحق، ونغمة تشاكل نغمة الصدق: «أيها الناس قد كنت أنذرتكم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه، فكذبتم قولي وفَنَّدْتُم رأيي، وما زلتم تقولون كَيْتَ وكَيْتَ، حتى أحرجتم صدري ودفعتموني إلى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليَّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولَدِهِ من بعده، وألا أتخلَّى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها، فها أنتم أولاء ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم!»

ثم أعاد كَرَّتَهُ على الغلام، وسعى سعيه في المجلس الحسبيِّ، فأعاده سيرته الأولى، ووضع في عنقه غُلًّا لا فكاك له من بعده إلى يوم يبعثون.

ليت شعري! هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده، وأن المال قد ورثه غَيْرُ وارثه، واستأثر به غير صاحبه، وأن الولد قد أصبح – بعد ذلك المُلْكِ الكبير، والجنة والحرير – يطلب المضغة فَتُعْوِزُه، والجرعة فتتعذر عليه، وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مُطَّرِحًا في زاويةٍ من زوايا الحانات، لا وطَاء غير أديم التراب، ولا غطاء غير قطع السحاب؟! وهل أعدَّ عُدَّته للوقوف بين يدي الله في ذلك اليوم المشهود، يوم تكشف الهنات، وتفضح العورات، فيمسك ولده بيمناه ووصيته بيسراه، ثم يناجي ربه ويقول: «اللهم اعْدِنِي على هذا الكاذب الذي خَتَلَنِي وخدعني وخَفَرَ

ذمتي، وخَاسَ بعهدي وخان أمانتي، وأفسد وصيتي، وخذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله وهتك عرضه، وعذِّب نفسَه ونغِّص عيشه، فأنت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين!»

العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عام يقف ركب هذا العالم السائر على منزلةٍ من منازل الحياة، فينزِل عن مطاياه ليستريح فيها ساعةً من وعثاء السفر بعد أنْ نال منه الأَيْنُ والكلال، وأنضاه سُرى الليل ومسير النهار خمسةً وستين وثلاثمائة يوم.

هنالك يجتمع السفْر في صعيدٍ واحدٍ، فيتعارفون ويتفقد بعضهم بعضًا، فيجدون أنَّ فلانًا مات جوعًا، وفلانًا مات ظمأً، وآخر افترسه سبع، وآخر قتله لصٌّ، وآخر مات غيلةً، وآخر سقط عيًّا، وآخر طارت به قنبلةٌ، وآخر هوت به طيارة، وآخر اجتاحه بركان، وآخر تردى عليه منجمٌ، ثم يعودون إلى جرائد الإحصاء ليدونوا فيها حاضرهم كما دونوا فيها ماضيهم، ثم يوازون بين هذا وذاك، فيجدون أنَّ الحاضر شرٌّ من الماضي، وأنَّ ميادين الحروب لا تزال ملوثةً بالدماء، ومصانع الموت لا تزال تفتنُّ في عدده وتستكثر من أدواته، وأنَّ أغراس الشر لا تزال عالقةً بنفوس البشر، حتى ما يكاد أحدٌ يتمنى أن تقع عينه على أحد، وأنَّ سحائب البغضاء لا تزال ناشرةً أجنحتها السوداء على المجتمع الإنساني من أقصاه إلى أقصاه شعوبًا وقبائل، وأجناسًا وأنواعًا، ومذاهب وأديانًا، ومنازل وأوطانًا، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه، فإن عرف

أنه يوافقه أبغضه لأنه ينطق بغير لغته، فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه، فإن كان مشاركًا له أبغضه لأنه يزاحمه في حرفته أو صناعته، فإن بَعُدَ عن طريقه أبغضه لأنه يخالفه في رأيه، فإن كان موافقًا له أبغضه لأنه لا يحاكيه في لونه. فإن لم يجد شيئًا من هذا ولا ذاك أبغضه لأنه لا شخصٌ سواه. كأن قضاءً حتمًا على الإنسان أن يبغض كل صورةٍ غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته، فإذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم والموازنة بينَ حاضرهم وماضيهم، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب، فتناسوا كل هذا، ووضع كلٌّ منهم يده في يد أخيه مهنئًا له بالعيد السعيد، داعيًا له بدوام الرفاهية والسعادة، ثم تنادَوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية.

علام يهنئ الناس بعضهم بعضًا؟ وماذا لقوا من الدنيا فيحرصوا على البقاء فيها ويغتبطوا بقطع المراحل التي يقطعونها منها؟ ومن منهم يستطيع أن ينطق بلسانٍ يصدُق الحديث عما في نفسه فيقول: إنه أصبح سعيدًا كما أمسى أو أمسى سعيدًا كما أصبح؟ أو إنه رأى بارقًا من بوارق السعادة قد لمع يومًا من الأيام في سماء حياته ولم يرَ بجانبه مثل ما يرى في الليلة البارقة من نجومٍ هاوية، ورعودٍ قاصفةٍ، وصواعق محرقةٍ، وغيوم متلبدة؟

بأي نعمةٍ من النعم أو حسنَةٍ من الحسنات تمن الحياة على رجلٍ ينتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة العيش إلى ظلمة القبر،

كأنما هو يونان الذي التقمه الحوت فأصبح في ظلماتٍ بعضها فوق بعض؟ وأي صنيعة من الصنائع أسدتها الأيام إلى إنسانٍ يظل فيها من مهده إلى لحده حائرًا مضطربًا يفتش عن ساعة راحةٍ وسلام يبل بها غُلَّته ويثلج بها صدره فلا يعرف لها مذهبًا ولا يجد إليهاً سبيلًا؟ إن كان غنيًّا اجتمعت حوله القلوب المضغنة، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة، فإما قتلته وإما أفقرته. وإن كان فقيرًا عدَّ الناسُ فقرَه ذنبًا جنته يداه، فتتناوله الأكف، وتتقاذفه الأرجل، وتتجاذبه الألسن حتى يموت الموتة الكبرى. وإن كان عالمًا ولع به الحاسدون واستُهتروا في تزييفه والتشهير به، وأغروا بنفثاته وآثاره حتى يعطيهم عهده وميثاقه أن يعيش عالمًا كجاهلٍ وحيًّا كميتٍ، وأن يكتم سر علمه في صدره فلا يفضي به إلى لسانٍ ولا قلم، أو يموت دون ذلك. وإن كان جاهلًا اتخذه العالمون مطيةً لا يزالون يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يرحمونها، ولا يرفقون بها، ولا يقيمون صلبها حتى يعقروها. وإن كان بخيلًا ازدرته القلوب، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه، وبرزت له الأنياب، وانقبضت له السرائر، والتهبت له الأنظار، وأرسلت إليه الأضغان ألسنة نيرانها حتى تحرقه. وإن كان كريمًا محسنًا عاش مترقبًا في كل ساعةٍ ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم، إما لأنه منحهم أولًا ثم منعهم آخِرًا، فهم يحاولون أن ينتقموا منه لأنه أذاقهم لقمةً ناعمةً ما كانوا يقدرون لها في أنفسهم حسابًا، فلما

ذاقوها استعذبوها، فاستزادوا منها فلم يجدوا ما يريدون، فتمتلئ صدورهم حقدًا على تلك اليد التي هاجت بِطنتهم، وأشعلت نارها ثم لم تطفئها. أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يشعرون كأن المحسن يريد أن يشتري منهم نفسه بما يسدي إليهم من إحسانه، فيتناولون من الإحسان لأنهم طمَّاعون، ويطوون القلوب على الحقد عليه والموجدة له؛ لأنهم كانوا يريدون أن يتمكنوا من عِرضه ينالون منه كما يشاءون فحِيل بينهم وبين ذلك.

لا سعادة في هذه الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري، ولن ينتشر السلام إلا إذا هدأت أطماع النفوس، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف، فعرف كل ذي حقٍّ حقه، وقنع كلٌّ بما في يده عما في يد غيره، فلا يحسد فقيرٌ غنيًّا، ولا جاهلٌ عالمًا. وأشعرت القلوب رحمةً وحنانًا على البؤساء والمنكوبين، فلا يهلك جائعٌ بين الطاعمين، ولا عارٍ بين الكاسين. وامتلأت النفوس عزةً وشرفًا، فلا يبقى شيءٌ من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدين أو باسم الوطنية أو باسم الإنسانية أو باسم العلم، ولا نرى طبيبًا يدِّعي علم ما لم يعلم ليسلب المريضَ رُوحَه وماله، ولا محاميًا يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما يسلب منه خصمه، ولا تاجرًا يشتري بعشرة ويبيع بمائةٍ ثم ينكر بعد ذلك أنه لصٌّ سارق، ولا كاتبًا يضرب الناس بعضهم ببعضٍ حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح

الزَّند بالزند ليظفر بالشرر المتطاير منهما. وما دامت هذه المطالب أحلامًا كاذبةً وأمانيَّ باطلة فلا مطمع في سلام ولا أمانٍ، ولا أمل في سعادةٍ ولا في هناء، ولا فرق بين أمس الدهرِ ويومه ولا بين يومه وغده، ولا فرق بين مغفلات أيامه ومعلمات أعياده، فليهنأ بالعيد من عرف من أيامه غير ما عرفت، وذاق من نعمائه غير ما ذقت، وليفرح بالعام الجديد من حمد ماضي أيامه، وسالف أعوامه.

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير – وهي الرواية المعروفة برواية «يوليوس قيصر» – موقفًا لبطلين من أبطال الفصاحة، وفارسين من فرسان البيان، قد وقف كلٌّ منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة بين مضارب الأقدام، تعلو بها حينًا وتسفل أحيانًا، فلا تثبت صاعدةً ولا تستقر هابطةً، فعلمت أنَّ العامة عامةٌ في كل عصرٍ، والشعب شعبٌ في كل مصرٍ، وأنَّ سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر، وأنهُ في رأس التاريخ اليسوعي مثله في ذَنَبِ التاريخ المحمدي، تدنو به كلمة وتنأى به أخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة، وتطير بِلُبِّه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء.

علم بروتس الشريف الروماني أنَّ يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلًّا ملك عليه حواسه ومشاعره، حتى ما يكاد يشعر بمرارته، وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيءٍ حتى الشعور بنزوله بها. وعلم أنَّ حياة ذلك الشعب في موت ذلك القيصرِ، فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده افتداءً لأمته، فطعنه طعنةً نجلاء سلبته نفسه، فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه هياج الأمواج المتدفعة على السفن المبعثرة في أكناف

الدأماء، فوقف الرجل خطيبًا في وجه هذا الشعب المائج المحتدم حزنًا على خلاصه من يد قاتله وقفةَ المستبسل المستميت، وكان لا بدَّ له في موقفه من أحد المصيرين: إما نصرٌ يعلو به إلى مدار الأفلاك، أو خذلانٌ يهوي به إلى مقر الأسماك، ومن أحد المخرجين: إما مخرجه مرفوعًا على محفة الأبطال، أو محمولًا على أعناق الرجال، فبعد لأْيٍ ما استطاع بعض الناس أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه، أو التفكُّه بمنظر هذيانه وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جُرمه.

الخُطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة): «أيها الرومانيون، أتعدونني بالصبر القليل على سماع ما أقول من حلو الكلام ومرِّه إكرامًا لموقفي وإكرامًا للعدل؟

أنا لا أريد أن أخدعكم عن أنفسكم، ولا أن أعبث بعقولكم وأهوائكم، بل أريد منكم أن تنظروا إلى قضيتي نظرَ المستيقظ الحَذِر الذي لا يعطي هوادةً ولا يسلس قيادًا، ولا ينام عن شاردةٍ ولا واردة؛ لأني لا أعتقد أنَّ في زاويةٍ من زوايا قضيتي هذه كمينًا أخاف أن تقع عليه العيون.

أيها الرومانيون، إن كان بينكم صديقٌ لقيصر يحبه ويتهالك وَجْدًا عليه فليسمح لي أن أقول له: «أيها الصديق الكريم، إنَّ بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر من حبك إياه.»

أيها القوم، والله لو كذَبتُ الناس جميعًا ما كذَبتُكم، فاعلموا أني ما قتلت قيصر لأني كنت أبغضه، بل لأني كنت أحب رومة أكثر منه.

كان قيصر يحبني فأحببته، وكان شجاعًا فاحترمته، ولكنه كان طماعًا فقتلته، ففي ساعة واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري.

أنا لا أصدق أنَّ بينكم من يحزن لموت قيصر، فأنتم رومانيون، والرومانيُّ لا يحب أن يعيش ذليلًا.

من منكم يكره أن يكون رومانيًّا؟ من منكم يكره أن يكون حرًّا؟ من منكم يحتقر نفسه؟ من منكم يزدري وطنه؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم؛ لأنه هو الذي يحق له أن يثأر لنفسه مني؛ لأني لم أسئ إلى أحدٍ سواه.»

الشعب: «لا، لا، ليس فينا واحدٌ من هؤلاء.»

بروتس: «إذن أنا لم أسئ إلى أحدٍ منكم.»

(وما وصل بروتس من حديثه إلى هذا الحد حتى دخل أنطونيوس صديق قيصر، ورأس الناقمين على قتلَتِه، والطالبين بثأره هو وآخرون، ومعهم جثة قيصر لتأبينه في هذا المجمع الحاشد، فاستأنف بروتس الكلام، وقال):

«ها هي ذي جثة قيصر، وها هو ذا صديقه أنطونيوس قد جاء ليُؤبِّنه فاستمعوا له، واعلموا أنَّ قيصر المذنب غير قيصر الماجد، وقد سمعتم ما قيل عن الأول فاسمعوا ما قيل عن الثاني، واسمحوا لي أن اقول كلمة أختم بها خطابي.

أيها الرومانيون، إنَّ الخنجر الذي ذبحتُ به قيصر في سبيل رومة لا يزال باقيًا عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر إذا أرادت رومة ذلك.».

تأثير الخُطبة

الشعب: «ليحيا بروتس!»

أحد الناس : «أنا أقترح أن نحمله على الأكف والرءوس إلى بيته.»

آخر: «انصبوا له تمثالًا.»

آخر: «امنحوه عرش قيصر.»

آخر: «إنه أفضل من قيصر.»

آخر: «إنَّ قيصر كان ظالمًا.»

آخر: «إنه كان الظلم بعينه.»

آخر: «لتهنأ رومة بالخلاص منه.»

آخر: «ألا نسمع تأبين أنطونيوس؟»

آخر: «نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك.»

وهنا خرج بروتس والقلوب طائرة حوله، والعيون حائمة عليه، وقد نال بتأثير خطابه من نفوس الشعب الروماني ما أراد، ثم صعد أنطونيوس على منبر الخطابة، فهزأ الشعب بموقفه، ولولا كلمة من بروتس ما ثبت في موقفه لحظة واحدة، ثم أنشد قصيدة التأبين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحةً وبيانًا،

والتي لا يكاد يوجد إنكليزيٌّ لا يحفظها ولا يمجدها تمجيد الأمم المتعبدة بآيات الكتب المقدسة.

القصيدة

أنطونيوس: «أيها الرومانيون!»

أحد الناس: «اسمعوا ما يقوله أنطونيوس.»

آخر: «لا، لا نسمعه.»

أنطونيوس: «اسمعوني إكرامًا لبروتس.»

أحد الناس: «ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس؟»

آخر: «لا يقول شيئًا.»

آخر: «إذن نسمعه.»

أنطونيوس: «أيها الأصدقاء، أنا ما جئت هنا اليوم لأرثي قيصرَ، بل لأدفن جثته.

أيها القوم، ما من أحدٍ من الناس إلا وله في حياته أعمالٌ حسنة وأخرى سيئة، أما حسناته فتموت بموته، وأما سيئاته فتبقى من بعده خالدة إلى يوم يبعثون.

كذلك كان قيصر في حياته ومماته، وحسناته وسيئاته.

أيها القوم، ما كنت لأستطيع أن أقف موقفي هذا بينكم ولا أن أقول كلمة مما أريد أن أقول لولا أنَّ بروتس قاتل قيصر أمرني بالوقوف، وأمرني بالكلام، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته واستمعت له؛ لأنه رجلٌ شريف.

أيها القوم، يقول الشريف بروتس: إنَّ قيصر كان رجلًا طماعًا،

وأنا لا أستطيع أن أخالفه فيما يقول؛ لأنه رجلٌ شريف.

أنا لا أستطيع أن أقول: إنَّ قيصر كان رجلًا قانعًا عادلًا أمينًا؛ لأن الشريف بروتس يقول غير هذا.

كل ما أستطيع أن أقوله: إنَّ الفدية التي افتدى بها أعداؤنا أَسراهم الذين جاء بهم قيصر إلى رومة قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها.

كل ما أستطيع أن أقوله: إني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء، ويحزن لحزنهم، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهرًا لا يغتمض له جفنٌ حَدَبًا بهم وعطفًا عليهم.

كل ما أستطيع أن أقوله: إني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في لوبر كال ثلاث مراتٍ فأباه زهدًا فيه وازدراءً له.

كنت أستطيع أن أقول: إنَّ الطمع لا يسكن قلبًا مثل هذا القلب، ولا يخالط فؤادًا مثل هذا الفؤاد، لولا أنَّ بروتس يقول: إنَّ قيصر رجلٌ طماع. وأنا لا أستطيع مخالفته؛ لأنه رجل شريف.

أيها الرومانيون، إنكم أحببتم قيصر قبل اليوم حبًّا جمًّا، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه؟

إن لم تبكوه لصفاته الكريمة فابكوه لأنكم كنتم تحبونه، ابكوه لأنه كان بالأمس ينطق الكلمة فتدوي في صدور العظماء دويَّ الرعد في آفاق السماء، فأصبح اليوم مُطرحًا في ظل هذا الحائط لا يجد بين

الناس من يأبه له، ولا من ينظر إليه.

أيها العقل الإنساني، كيف حالت حالك وتغيرت آيتك؟! وكيف انتقلت من الصدور الإنسية إلى الصدور الوحشية؟! وكيف ضللت سبيلك، وعميت عليك مذاهبك فحسبت الخير شرًّا، والشر خيرًا، واختلط عليك الأمر بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم؟

أيها الرومانيون، عفوًا إنْ هذيت بينكم، أو أسأت إليكم، واعلموا أنَّ الحزن قد قسم فؤادي قسمين: قسمٌ على هذا المنبر، وقسمٌ في ذلك النعش.

أيها الأصدقاء، إنَّ بين جنبيَّ قلبًا يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم، ولولا مخافة أن تنفجر صدوركم حزنًا وجزعًا لقلت لكم: إنَّ قيصر قتل مظلومًا.

إنني أعتقد أنَّ بروتس ورفاقه قومٌ شرفاء عظماء؛ لذلك أحب أن أسيء إلى نفسي وإلى قيصر وإليكم قبل أن أقول: إنهم أخطئوا في قتل قيصر فأسيء إليهم.»

(وهنا أرسل أنطونيوس من جفنيه قطراتٍ من الدموع).

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه): «يلوح لي أن فيما يقول الرجل شيئًا معقولًا.»

آخر: «إنك إذا أَنْعَمْتَ النظرَ وجدت أن قيصر قد أسيء إليه.»

آخر: «لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك.»

آخر: «لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي لبكاء الفقراء.»

آخر: «إنَّ الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعًا ولا ظالمًا ولا قاسيًا.»

آخر: «إذن فسيكون لمقتل قيصر شأنٌ غير شأنه الأول.»

آخر: «لا بدَّ من عقاب القاتل.»

آخر: (يقول لجليسه): «انظر إلى أنطونيوس فقد بكى حتى احمرت مقلتاه!»

آخر: «ليس في رومة رجلٌ أشرف من أنطونيوس.»

أنطونيوس: «أتأذنون لي بالنزول من المنبر لأقف قليلًا بجانب جثة القتيل؟!»

الشعب: «نعم، نعم.»

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة قيصر وهو لا يزال في ملابسه التى قتل فيها، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه، ثم قال):

«من كان يملك منكم دموعًا فليدعها لهذا الموقف، فإني سأُبكيكم في هذه الساعة بكاءً شديدًا.

إنكم جميعًا تعرفون هذا القَباء، ولكنكم لا تعرفونه كما أعرفه أنا، أنا أعلم أنَّ قيصر لبسه أول مرةٍ في مساء اليوم الذي انتصر فيه على «الدفى» ذلك الانتصار الباهر الذي نالت به رومة فخرًا عظيمًا.»

(ثم وضع يده على الثقوب التي في القباء وقال):

«في هذا القباء الشريف تمزقت جثة هذا الفاتح العظيم، في هذا الثقب طعنه بروتس طعنته، ومن هذا الثقب أطلَّ دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب، وأحسب أنَّ أفراد النوع الإنساني جميعهم قد مروا بخاطر قيصر فردًا فردًا قبل أن يمر بخاطره بروتس.

عرف قيصر أنَّ قاتله هو صديقه وصنيعة إحسانه، ففترتْ همته وعجز عن المقاومة؛ لأن الطعنة التي أصابته في جسمه لم تكن أقلَّ من الطعنة التي أصابته في قلبه، ولم يكن منظر المُدَى والخناجر أبشع في نظره من منظر الخيانة والغدر، هنالك عجز قيصر عن أن يقول شيئًا غير الكلمة التي ودَّع بها قاتله الوداع الأخير: وأنت أيضا يا بروتس؟!

وهنالك تحت تمثال بومباي وُجد قيصر قتيلًا، وقد لفَّ وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل، ها أنتم أُولاء تبكون على قيصر، فشكرًا لكم على هذه الدموع

الكريمة التي طهَّرتم بها ما لوَّث به الخونة تربة الأرض من الدماء.

إنكم تبكون لمنظر قباء قيصر المزق، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته؟!»

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه وقال):

«إنَّ في كل جرح من هذه الجروح لسانًا يشكو إليكم فاستمعوا له، فهو أنطق من لسان الرثاء.»

أحد الناس: «يا له من منظر فظيع!»

آخر: «وا رحمتاه لقيصر!»

آخر: «إنَّ يومًا يقتل فيه قيصر ليومٌ شره مستطير.»

آخر: «يا للدناءة والسفالة!»

آخر: «يا للغدر والخيانة!»

آخر: «الانتقام! الانتقام!»

الشعب (وهو يضج ضجيجًا عظيمًا): «أحرقوا القتلة! مزقوهم! لا تبقوا على أحدٍ منهم!»

أنطونيوس: «مهلًا! مهلًا! أنا لا أريد أن أشعل بينكم فتنةً عمياء، ولا أريد أن تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها، فإني لا أزال أعتقد أنهم قوم شرفاء، وربما كانوا يعرفون أسبابًا لقتله لا نعرفها، وإنما أريد أن أقول لكم: إنَّ قيصر كان يحبكم حبًّا جمًّا، فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه.

لولا أني أوثر الإبقاء عليكم، ولولا أني أحب تخفيفَ ما ألمَّ بقلوبكم من الحزن على فقيدكم، لَتَلَوْتُ عليكم وصيته لتعلموا أنَّ

الرجل كان يحبكم، وأنه ما كان خليقًا أن يقتل بينكم وفيكم عينٌ تطرف وفؤادٌ يخفق.»

الشعب: «اقرأ الوصية.»

أنطونيوس: «إني أخاف على صدروكم أن تنفجر حزنًا على القتيل الشهيد.»

الشعب: «نريد سماع الوصية.»

أنطونيوس: «إنه يعطي كل فردٍ من أفراد الرومان خمسةً وسبعين فرنكًا ويوصي بجميع غاباته ومتنزهاته ورياضه لأمته.»

أحد الناس: «يا له من رجلٍ كريم!»

آخر: «يا له من رجل شريف!»

آخر: «ويلٌ للقتلة!»

آخر: «الثورة، الثورة!»

آخر: «سنحرق منزل بروتس ومنازل رفاقه.»

(ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع رومة تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط).

أنطونيوس (في موقفه وحدَه): «أيتها الفتنة العمياء، أيقظتك من مرقدك، فارفعي رأسك، وامضي في سبيلك، واشتعلي حتى يحرق لسانُك أديمَ السماء، وحتى لا تُبقي على شيءٍ مما حواليك.»

(انتهى)

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقفٍ واحدٍ أن يستعبد الشعب

الرومانيَّ لنفسه، وما كاد يَخلُص من استعباد قيصر... وهكذا الأمم الضعيفة، لا مفرَّ لها من العبودية لحملة التيجان، أو حملة البيان!

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل

لي في البلدة التي أسكنها كرامةُ الحاكم؛ لأني أشغل وظيفةً عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاختلفتُ حتى فاجأني يومًا من الأيام ما لم يكن في الحسبان.

حدث أنَّ صعلوكًا يعرفني ويعرف مقامي تمادى في وقاحته وسوء أدبه حتى وقف بجانبي في الصلاة، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر كل الاشمئزاز، وحاولت أنْ أحتمله فلم أستطِع، وخفت إنْ طردته أنْ يؤاخذني الناس به، فهل تعرف مسوغًا شرعيًّا يفرِّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟

سائل

يا مولانا الحاكم

رحماك بهذا الصعلوك المفلوك الواقف بجانبك، لا تضنَّ عليه بظلك الظليل أنْ يمتد إليه فيقيه أشعَّة التصعلك الحارة ساعةً من الزمان، ولا تحرمه نفحةً من نفحات السعادة التي تهبُّ عليه من بين أردانك العطرة، عله يجد في تلك اللذة الخيالية ما يهون عليه مصابرة البلاء، ومعاناة الشقاء، وأحسن كما أحسن الله إليك، إنَّ الله يحب المحسنين.

ليُفرخ رُوعك، وليثلج صدرك، واعلم أنَّ هذا الفقير الصعلوك الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم وبرَّح به الشقاء أن يقتطع قطعةً من سعادتك، أو يفتلذ فلذةً من شرفك، فسعادتك وشرفك كالمصباح تستنير منه المصابيح، ونوره نوره، وبهاؤه بهاؤه.

لا تظلم الرجل، ولا تقل إنه وَقاح الوجه، أو سيئ الأدب، فإني أعلم بما أعرف من آمال هؤلاء البؤساء وأمانيهم أنه ما وقف بجانبك إلا طمعًا في دورة الفَلَك التي علَتْ بك وأنزلتك منازل العظماء أن تدور به دورتها بك، وأنْ تنزله منزلتك، فاغفرْ له جهلَه وقصورَه، فمثلك من يقيل العثرة ويستر الزلة!

إنك تريد مني أنْ أتلمَّس لك في أبواب الشريعة الإسلامية مسوِّغًا يسوِّغ لك طرد هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك، فاسمع ما أُلقي عليك: إنَّ الذي وقفت بين يديه في مُصلَّاك أجلُّ شأنًا وأعظم خطرًا من أن يحفل بثوبك اللامع، وجبينك الساطع، ورداؤك المطرز، وقميصك المحبر، وأنْ يعرف لك من الفضل والشرف أكثر ممَّا يعرف لصاحبك، فما كان له أنْ يأمرك أنْ تتقدَّمه، أو يأمره أنْ يقِفَ منك موقف العبد من السيد، والمحكوم من الحاكم.

إنَّ للجمعة والجماعة فضائل كثيرة وحِكمًا جمةً أرادها الشارع منهما، وإنك لن تجد بين هذه الحكم وتلك الفضائل حِكمةً أدق، ولا فضيلةً أنفَسَ من التواضع الذي يُشعره العظيم قلبه كلما رأى أنه قد

وقف من الفقير في ذلك الموطن المقدَّس موقف الأخ من أخيه والنظير من نظيره.

إن كنت تريد يا مولانا الحاكم من الاختلاف إلى المسجد ألا تترك للفقير موطنًا من المواطن يملك فيه الخيار لنفسه في مواقفه ومذاهبه حتى موقفه بين يدي ربه، فخيرٌ لك أن تستصحب معك فريقًا من شُرطتك وأعوانك لتأمرهم في ذلك الفقير بما يرضيك من إقصائه أو طرده أو التنكيل به كلما رأيته تمادى في وقاحته وسوء أدبه، فإن تم لك من ذلك ما أردت، فاحذر أن يخدعك خادعٌ عن نفسك، فيزين لك أن تنطق في موقفك هذا بآية العبودية بعدما نطقت بكلمة الألوهية، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتين: رذيلة الظلم ورذيلة الرياء.

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم أنَّ الله لا يقبلها منك، ولا يجزل لك ثوابها حتى تقف بين يديه موقف من ألَّت بقلبه الخشية، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره، فلم يعد يبصر شيئًا مما حوله، ولا يعلم إن كان واقفًا في حضرة الملوك أو في زمرة الصعاليك.

أيها العظماء

ليست العظمة التي تعرفونها لأنفسكم إلا منحةً من منح الفقراء عليكم، وحسنةً من حسناتهم إليكم، فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم، ولولا تصاغرهم في حضراتكم ما استكبرتم، فلا تجزوهم

بالإحسان سوءًا، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر تستدفعوا النقم وتستديموا النعم.

أيها العظماء

ما هذه القصور التي تسكنونها، ولا هذه النعم التي ترفلون في أثوابها، ولا هذه الحاشية التي تدلون بها إلا ألوانًا وأصباغًا لا علاقة بينها وبين نفوسكم، ولا دخل لها في جوهرٍ من جواهر أفئدتكم وقلوبكم، وما هي إلا أن تشرق عليها شمس الحقيقة فتذهب بها ذهابها بألوان السحاب وأصباغ الثياب، فإذا أنتم عراةٌ مجردون لا تشفع لكم إلا فضائلكم، ولا تنفعكم إلا مواهبكم ومزاياكم.

أيها العظماء

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشئونكم، فإن كنتم من أرباب الفضائل فَحَريٌّ بالفاضل ألا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء، أوْ لا، فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهًا ولا أصلب خدًّا من جهلة المتكبرين، فانظروا أين تنزلون؟ وفي أيِّ مقامٍ تقيمون؟

الانتحار

قرأت في الصحف أنَّ رجلًا من تجار المسلمين انتحر، لا لضيق يدٍ، أو شدة مرضٍ، أو بؤس حالٍ؛ بل لأنه حزن على وفاة صديقٍ له، فقتل نفسه.

إنَّ الرجل مؤمنٌ يعتقد – ولا شك – بسوء عاقبة المنتحر، فكيف هان عليه وهو في آخر يوم من أيام حياته أن يضم إلى خسارة دنياه خسارة آخرته، وهي العزاء الباقي عن كل ما يلاقي المؤمن في حياته من شقاءٍ وعناء؟

إنَّ الانتحار من حيث هو مبدأٌ فاسد، وعادة مستهجنةٌ رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها.

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك المصريين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في مالهم أو عِرضهم وصحتهم، أو كنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك قلنا: يوشك أن يقتل المصري نفسه بنفسه إذا علم أنَّ ذلك عادة من العادات الغربية، فقد صار قريبًا ما كان بعيدًا، وأصبح مألوفًا ما كنا نعده مثلًا من الأمثال.

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخَوَر، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والهوس. وأحسب ألا يقدم الإنسان على الانتحار وفي نفسه ذرةٌ من العزم، أو في عقله لمحةٌ من الحزم.

حب النفس غريزةٌ وضعها الله – سبحانه وتعالى – في نفس الإنسان لتكون ينبوع العمل، ومبعث الحركة، ومطلع شمس المدنية والعمران. والمنتحر يبغض نفسه بأشد مما يبغض الإنسان أعدى أعدائه، فهو شاذٌّ في طبيعته، غريبٌ في خُلُقه، معاندٌ لإرادة الله تعالى في حياة الكون وعمرانه، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلبٍ ولا عقل.

لا عذر لمنتحرٍ في انتحاره مهما امتلأ قلبه من الهمِّ ونفسه من الأسى، ومهمَّا ألَّمت به كوارث الدهر ونزلت به ضائقات العيش، فإنَّ ما أقدم عليه أشد مما فر منه، وما خسره أضعاف ما كسبه.

لو كان ذا عقل لعلم أنَّ سكرات الموت تجمع في لحظةٍ واحدةٍ جميع ما تفرَّق من آلام النفوس وشدائدها، وأنَّ قضاء ساعةٍ واحدة فيما أعدَّ الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم الدائم أشد مما يلاقيه من مصائب الحياة وأرزائها لو يعمَّر ألف سنةٍ.

ما أكثر هموم الدنيا وما أطول أحزانها! لا يفيق المرء فيها من همٍّ إلا إلى همٍّ، ولا يرتاح من فاجعةٍ إلا إلى مثلها، ولا يزال بَنُوها يترجَّحون ما بين صحةٍ ومرض، وفقرٍ وغنًى، وعزٍّ وذل، وسعادةٍ وشقاء، فإذا صح لكل مهموم أن يكره حياته، وكل محزون أن يقتل نفسه، خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها، وتبدَّلت سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

ما سُمِّي القاتل مجرمًا إلا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد، وأقسى منه قاتل نفسه؛ لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول، فهو أجرم المجرمين، وأفظع القاتلين.

يخدع المنتحرُ نفسَه إن ظن أنه مقتنعٌ بفضل الموت على الحياة، وأنه يفعل فعلته عن رَويةٍ وبصيرة، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزقِ الأول من مآزق الموت حتى يثوب إليه رشده وهداه، ويحاول التخلُّص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلًا.

إنْ ألقى نفسه في الماء تخبط، ومدَّ يده إلى من يرجو الخلاص على يده، وودَّ لو يفتدي نفسه بكل ما تمتلك يمينه. وإن أغلق على نفسه نوافذ غرفةٍ مملوءة بغاز الفحم ودَّ لو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمات الهواء، ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل، فاقد السمع والبصر.

إنَّ فكرة الانتحار نزغةٌ من نزغات النفس، وخطرةٌ من خطرات الشيطان. فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتمهَّل ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت وآلام النزع؟ وكيف يكون حديث الناس عنه بعد موته؟ وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذرٌ له أو ساكتٌ عن ازدرائه واحتقاره ورميه بالعتَه والجنون؟! وليستحضر في مخيلته أشكال العذاب وألوان العقاب التي أعدَّها الله في الدار الآخرة لأمثاله، ثم لينظر بعد ذلك: أيرتكب جريمة الانتحار؟ لا أظنه بعد ذلك فاعلًا إلا إذا كان وحشًا في ثوب إنسان، أو بطلًا من أبطال البيمارستان.

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحيانًا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسية، ومَرَّ مذاقها في أفواهم، حتى ما يغتبط حيٌّ بنعمة العيش، ولا يكره ميتٌ طلعة الموت.

لذلك نرى كل حيٍّ يهرب من الحياة الحسية جِدَّ الهرب لاجئًا إلى الحياة الشعرية من أيِّ بابٍ من أبوابها؛ لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده، ويثلج صدره، وينفي عن نفسه السآمة والضجر من صنوف المناظر، وأفانين المشاهد، وغرائب المؤتلفات، وعجائب المختلفات.

لولا حب الناس الحياةَ الشعرية لما وجد فيهم كثيرٌ من المولَعين بتخدير أعصابهم، كشاربي الخمر ومُدخِّني الحشيشة والأفيون. وهي وإن كانت في نظرهم حياةَ سعادةٍ يتخللها شقاء، إلا أنها عندهم خيرٌ من حياة شقاءٍ لا تتخللها سعادة. ولولا حب الحياة الشعرية لما وجد في الناس هذا الجمُّ الغفير من الشعراء المتخيلين، والمتصوِّفة المتهوِّسين.

لا يجد السكير لذة العيش وهناءه إلا إذا أسلم نفسه إلى كأس الشراب، فنقلَه من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالمٍ هائلٍ غريب يرى فيه كلَّ ما تشتهي نفسه أن يراه، فإن كان قبيحَ الوجهِ مشوه الخَلق تخيَّل أنه شَرَك الأبصار، وفتنة النظار، وأنَّ القلوب محلقة

على جماله تحليق الأطيار على الأشجار. وإن كان وضيعًا حقيرًا لا يملك فَلسًا توهم أنه جالسٌ على كرسيِّ المُلك، والصولجان في يمينه والتاج فوق رأسه، واعتقد أنَّ عبيد الله عبيده، وجنود الحكومة جنوده، حتى الجندي الذي يسحبه على وجهه إلى السجن. وبالجملة لا تقع عينه على ما يحزنه من المنظورات، ولا تسمع أذنه ما يُنفِّره من المسموعات، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء.

ولا يشعر الصوفيُّ بنعيم الحياة إلا إذا جَنَّ الليل وأوى إلى معبده وخلا بنفسه، فتخيل أنَّ له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في فضاء السماء، فيرى الجنة والنار والعرش والكرسيَّ، ويسمع صرير قلم القدرة في اللوح المحفوظ، ويقرأ في أمِّ الكتاب حديث ما كان وما يكون وما هو كائن!

ولا يستفيق الشاعر من هموم الدنيا وأكدارها ومصائبها وأحزانها إلا إذا جلس إلى مكتبه وأمسك بيراعه، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار، وتنقَّل به بين مسارح الأفلاك، ومسابح الأسماك، ووقف به تارةً على الطلول الدوارس يبكي أهلها النازحين وقُطَّانها المفارقين، وأخرى على القبور الدوائر يندب جسومها الباليات، وأعظمها النخرات.

ليس الأمل إلا بابًا من أبواب الحياة الشعرية، ولا يمكن أن يوجَد بين قلوب البشر قلبٌ لا يخفق بالآمال، فالأمل هو الحياة

الشعرية العامة التي يشترك في العيش فيها جميع الناس، أذكياء وأغبياء، فُهماء وبُلداء. والأمل هو السدُّ المنيع الذي يعترض في سبيل اليأس، ويقف دونه أن يتسرَّب إلى القلوب، ولو تسرَّب إليها لزهد الناس العيش في هذه الحياة الحسية التي لا قيمة لها في أنظارهم، ولا لذَّة لها في نفوسهم، ولطلبوا الفرار منها إلى الموت تسليًا بالتغيُّر والانتقال، وتلذذًا بالتحول من حالٍ إلى حال.

يقولون: «أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء!» ويقولون: «ما لذة العيش إلا للمجانين!»

أتدري لماذا؟

لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين، وذلك أنَّ عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية، والمغالطات الشعرية، فلا يرى سوى ما بين يديه من المحسوسات، ويمنعه علمه بأحوال الدنيا وشئونها ومعرفته أنَّ الهموم والأحزان لازمةٌ من لوازمها لا تنفك عنها أن يؤمل منها ما ليس في طبيعتها من دوام السعادة واستمرار السرور والهناء، فلا يطلب سَعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤملين، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين.

والحق أقول: لولا الحياة الشعرية التي أحياها أحيانًا في هذه النظرات، لأحببت – زهدًا في الحياة الحسية – أن تطلع الشمس من مغربها، ولو قامت القيامة بعد ذلك، ولتمنيت – حبًّا في الانتقال من حالٍ إلى حالٍ – أن أنتقل ولو إلى رحمة الله.

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات الخيام كما يقف مسافرٌ ضلَّ به سبيله في فلوات الأرض ومجاهلها بوادٍ معشوشبٍ زاهرٍ في وسط فلاةٍ جرداء عند منقطع العمران، فما خطوت فيه بضع خطواتٍ حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوارٍ بيضاء، وورودٍ حمراء، وألوان من النبات، مشتبهاتٍ وغير مشتبهاتٍ، وغدرانٍ مسلسلة مطَّردةٍ تتبسط في تلك الديباجة الخضراء تبسُّط الشهب في الديباجة الزرقاء، وأسرابٍ من الحمائم والعصافير والكراكي والبلابل تتطاير من فرعٍ إلى فرعٍ، وتتناثر من غصنٍ إلى غصن، وتجتمع لتفترق، وتفترقُ لتجتمع، وتقتتل مرةً وتتلاثم أخرى، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء، ثم تهبط فتقبِّل صفحة الماء، ولا تزال تغرد في صعودها وهبوطها تغريدًا مختلف النغمات متنوع اللهجات، فيتألف من ذلك الاختلاف نغمٌ بديع لا أعرف له شبيهًا إلا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان في فراديس الجنان.

فلم أزل أتقلَّب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء، وأجرُّ ذيول تلك الجداول البيضاء، وأقلِّب في طَرْفي فلا أرى رائحًا ولا غاديًا، وأتسمع فلا أسمع هاتفًا ولا داعيًا. حتى وقف بي الحظ على دوحةٍ فرعاء، ماثلةٍ على رأس بعض الجداول، قد اضطجع في ظلها على قطيفةٍ من ذلك العشب الناعم رجلٌ هانئٌ باسمٌ، يقرأ تارة سورة الجمال

في وجه فتاةٍ جالسة بين يديه، ويقبل أخرى ثغر الكأس التي في يمينه، ويترنَّم فيما بين هذا وذاك بمقطوعاتٍ شعرية بديعة، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها، وسعادة الوحدة وهناءها. ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب، كأنما يريد أن يفرَّ بنفسه من هذا العالم المَملوء بالآلام والأحزان، ويحاول أن يطارد كل خاطرٍ من خاطرات الهموم التي تتطاير حول قلبه ليستكمل لذته في العيشِ، ويتغلغل في أعماق المتعة بوحدته وكتابه، وكأسه وفتاته.

فإن مرَّ بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عزٍّ وسلطان ولذةٍ واستمتاع قال: «ما لي وللملك والسلطان، والحاشية والجند، والقصور الشمَّاء، والجنان الفيحاء، هنالك المحنة والشقاء، والفتنة الشعواء، والهموم والأرزاء، والدماء والأشلاء، والعويل والبكاء، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد، حيث لا سيِّد ولا مسود، ولا عابد ولا معبود. وبين هذين الثغرين: ثغر الفتاة وثغر الكأس، وذينك الصديقين: هذا الكتاب المفتوح، وذلك الغصن المطلِّ، كان ما يقدِّر السعداء لأنفسهم من غبطةٍ في الحياة وهناء.»

وإنْ ذكر الآخرة وما أعدَّ الله فيها من العذاب للمسرفين على أنفسهم قال: «إنَّ من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول. أنا اليوم موجودٌ، فلا بدَّ أن أستمتع بمتعة الوجود، أما الغد فلا علم لي به ولا بما قُدِّر لي فيه، وعسير عليَّ أن أتصور أننا – معشرَ الأحياء – كنوزٌ من الذهب تدفن اليوم في باطن الأرض، لينبش عنا النابشون غدًا.»

ثم يعود إلى نفسه مستغفرًا الله من ذنبه في شكِّه وارتيابه فيقول: «اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر لك المؤمنون الموحدون، فاغفر لي آثامي وذنوبي؛ فإني ما أذنبت عنادًا لك ولا تمردًا عليك، ولكنها الكأس غلبتني على أمري، وحالت بيني وبين عقلي، وأنت أجلُّ من أن تقاضيني كما يقاضي الدائن مَدينه؛ لأنك كريمٌ، والكريم يرتجل المنحة ارتجالاً ولا يقرضها قرضًا، ويسبغ نعمته حتى على العصاة والمذنبين.»

وأحيانًا يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحياءهم وأمواتهم، ويقول مخاطبًا فتاته: «رويدًا أيتها الفتاة في خطواتك على هذه الأعشاب، فلعل جذورها تستمدُّ حياتها من كبد فتاةٍ مثلك لها قلبٌ مثل قلبك، ووجدانٌ مثل وجدانك، وجمالٌ ورواء مثل جمالك وروائك، ثم ضرب الدهر ضرباته، فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء، وإذا هي في دجنة تلك الأعماق السوداء، فارفقي بها، واسكبي هذه الفَضْلة من كأسك على تربتها علَّها تتسرَّب إلى نفسها فتطفئ ذلك اللاعج الذي يتأجج بين جوانحها.»

ثم يتخيَّل أحيانًا كأنه واقفٌ أمام رجلٍ خزَّاف يحرق آنيته في تنُّوره، فيقول له: «رحمة أيها الخزاف بهذه الحمأة التي تقلبها في هذه النار، فقد كانت بالأمس إنسانًا مثلك، وستكونُ في مستقبل الأيام حمأةً مثلها، وربما ساقك الدهر إلى يدي خزَّاف تحتاج إلى رحمته ورفقه، فارفقْ بها اليوم يَرفقْ بك خزَّافك غدًا.» وآونةً

يلبس ثوب الواعظ المنذر، فينعى على السعداء سعاداتهم ويذكرهم بما آلت إليه حال الملوك السالفين، والأقيال الماضين، من خراب دورهم، وعمران قبورهم، وغروب شموسهم، واندثار آثارهم. ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على نفسه، وترقُّب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته، وتنطفئ جذوته، وتضعف مُنَّتُه، ويمحو نهار مشيبه ليلَ شبابه، فيزحف إلى قبره شيئًا فشيئًا حتى يتردَّى فيه، فيعود كما كان سرًّا مكتومًا في ضمائر الأقدار، وذرةً هائمةً في مجاهل الأكوان.

وهكذا ما زال ينتقل من عِبرةٍ بليغةٍ إلى عظةٍ بديعةٍ، ومن خيالٍ جميلٍ إلى تشبيهٍ رقيق، ومن وصفٍ ناطقٍ إلى تمثيلٍ صادق، حتى أصبحتُ أعتقد أنَّ هذه النفس التي تشتملُ عليها بردة هذا الشاعر الجليل مرآةٌ صافية قد تمثَّل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه، وليله ونهاره، وناطقه وصامته، وصادحه وباغمه. وأنَّ فخار الأعراب بمُتنبيِّها ومَعرِّيها، والفرنسة بلامَرْتِينِها وفِيكْتُورها، والسكسون بشكسبيرها ومِلْتُونِها، والطليان بدَانْتِيِّها، والألمان بجيتِها، والرومان بفِرْجِيلها، واليونان بهُومِيرِها، ومصر القديمة ببنْتَاؤورها، ومصر الحديثة بأحْمَدها، لا يقلُ عن فخار فارس بخَيَّامها.

إلى تولستوي

قف ساعةً واحدةً نودِّعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دارٍ عزلتك، فقد عشنا في كنفك – على ما بيننا وبينك من بعد الدار وشطِّ المزار – عهدًا طويلًا كنا فيه أصدقاءك وإنْ لم نرك، وأبناءك وإنْ كنا لنا آباء من دونك. وعزيزٌ علينا أن تفارقنا قبل أن نقضيَ حقَّ عِشْرتك بدمعةٍ واحدة نسفحها بين يديك في موقف الوداع.

حدثنا الناس، أنك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعًا بعد أن أعجزك إصلاحه وتقويمه، فأبغضته وعِفت النظر إليه، وأبغضت لبغضه كلَّ شيءٍ حتى زوجَك وولدك، ففررت بنفسك منه إلى غابٍ تسمع زئير سباعه، أو دَيرٍ تأنس برنَّة ناقوسه. وأَسْجَلْتَ ألا تعود إليه، وأن تقطع كل سبيلٍ بينك وبينه، فعذرناك ولم نعتب عليك، ولم نُسمِّك جبانًا ولا منهزمًا ولا مولِّيًا ولا مدبرًا؛ لأنك قاتلت فأبليت حتى لم يبقَ في غمدك سيف، ولا فوق عاتقك رمح، ولا في كنانتك سهمٌ، والعدو كثيرٌ عدده، صعبٌ مراسه، وافرة قوته، والشجاعة في غير موطنها جنونٌ، والوقوف أكثر من ثمانين عامًا أمام عدوٍّ لا أمل في براحه ولا مطمع في زياله عنادٌ. وهل كان يكون مصيرك إن أنت قاتلت حتى سقطت قتيلًا في المعركة إلا مصير الفلاسفة من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا، فهدرت دماؤهم، واغتمضت عيونهم قبل

أن يروا منظرًا من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشريِّ يعزون به أنفسهم عن أنفسهم، ويروحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع، وفي أفواههم من مرارات الموت.

ماذا لقيت من الدنيا؟ وماذا أفدت منها؟ وأين وقع علمك وفضلك، ولسانك وقلمك، وقوة عارضتك ومضاء حجتك من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم، وظلم ألسنتهم وأيديهم؟

قلت للقيصر: «أيها الملك، إنك صنيعة الشعب وأجيره لا إلهه وربه، وإنك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكَّار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجورٌ على عملٍ يعمله فيسدده، وكلاكما مأخوذٌ بتبعة زَلّه وسَقَطه، فكما أنَّ صاحبَ المصنع يسأل العامل هل وفَّى عمله ليمنحه أجره، كذلك يسألك الشعب هل قمت بحماية القانون الذي وكل إليك حراسته فأنفذته كما هو من غير تبديلٍ ولا تأويل؟ وهل عدلت بين الناس، فآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ وهل استطعت أن تستخلص عقلك من يدي هواك فلم تدع للحب ولا للبغض سلطانًا على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومَحجَّته؟ وهل أصممت أذنك عن سماع المَلَق والدهان، والمدح والثناء، فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم، ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك أو الطمع في غفلتك مذهب التوسل إليك بالكذب والنميمة والتجسس وذلة الأعناق وضرع الخدود؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه، ورآك

أمينًا على العهد الذي عهد به إليك أبقى عليك، وأبقى لك سلطانك، وعرف لك يدك عنده، وأحسن إليك كما أحسنت إليه، أوْ لا، كان له معك شأنٌ غير ذلك الشأن، ورأي غير ذلك الرأي.»

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها؛ لأنه لم يجد بين الكثير الذي يعاشره من يُسمعه مثلها، فحقد عليك، ونقِم منك، وأزعجك من مكانك، واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذلَّ نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل، لِيعدَّهم لمقاتلة الحق ومصارعته في أيام خوفه وقلقه.

وقلت للجبَّار الروسيِّ: «ليس من العدل أن تملك وحدَك – وأنت نائمٌ في سريرك في قصرك بين روضك ونسيمك، وظلك ومائك – هذه الأرض التي تضم بين أطرافها مليون فدان، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين الذين يحرثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويربون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها، وأجيجها وثلجها، شبرًا واحدًا فيها، فاعرف لهم حقهم، وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأَشْعِرْ قلبَك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك، واعلم أنَّ الأرض لله يورثها من يشاء.» ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلًا من نفسك، فعمدت إلى أرضك، فجعلتها قسمةً بينك وبين القائمين عليها من الزارعين، ثم عمدت إلى فأسك فاعتقلتها، وماشيتك فأخذت بزمامها، وما زلت حتى بلغت مزرعتك الصغيرة

التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين وخضت مع الخائضين، لتعلم ذلك الجبار بيدك ما عجزت عنه بلسانك، فسخر منك ورثى لعقلك، وألَّف من حادثتك روايةً غريبة يروِّح بها عن قلبه في مجتمعات أنسه ولهوه ما يكابده من ألم السآمة والضجر.

وقلت للكاهن: «إنَّ المسيح عاش معذَّبًا مضطهدًا؛ لأنه لم يرضَ أن يقرَّ الظالمين على ظلمهم، وأبى أن يخفي ذلك المصباح الذي في يده تحت ثوبه، بل رفعه فوق رأسه غير مبالٍ بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوءتهم، ويهتك سترهم، وأنت تزعم أنك خليفته وحامل أمانته والقائم بنشر آياته وكلماته، والمترسِّم مواقع أقدامه في خطواته، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين؟! وما هذه اليد التي تضعها في أيديهم كأنك تأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يقتلوا ويسلبوا باسمك، وفي حمايتك وحماية الكتاب المقدس؟! وما هذا السلطة التي تزعمها لنفسك أن تُدخل الجنة من تشاء، وتخرج منها من تشاء؟! وما هذه القصور التي تسكنها، والديباج الذي تلبسه، والعيش البارد الذي تنعم به وأنت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن زخرف الدنيا ونعيمها إلى عبادة الله والانكماش في طاعته؟!»

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه أن أرسل إليك كتاب الحرمان، وهو يعلم أنك لا تعترف له بالقدرة على إعطاءٍ أو منع، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغضَّ منك، وإغراء العامة بك، وصَرف القلوب عنك، فكان ذلك كلَّ ما استفدت من نصيحتك وعظتك.

وأبكاك منظر المنفيين في سيبريا، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من أنواع الآلام، فصرخت صرخةً دوَّى بها الملأ الأعلى والملأ الأدنى، وقلت: «أيها الناس، إنَّ الشر لا يدفع الشر، والأشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم والانتقام يلهب نارها، واجعلوا مكان السجون مدارس، ومكان السجَّانين معلمين.» فلم يسمع صرختك سامعٌ، ولا بكى لبكائك باكٍ، وما زال القضاة يحكمون، والجند يصادرون، والسجانون يعذبون، والمسجونون يصرخون.

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب، وبكاء النساء المعولات خلف أزواجهن وأولادهن وأخواتهن، وهم سائرون إلى حربٍ لا يعرفون لها مصدرًا ولا موردًا، وقد حمل بعضهم لبعضٍ بين الجنوب ضغائن وسخائم لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة، فتخليوا أنهم أعداء وهم أصدقاء، فتسلبوا من لباس الإنسانية، ولبسوا فراء السباع، وتقلدوا أظفارها، وأنشب كلٌّ منهم ظفره في صدر أخيه كأنما يفتش عن قلبه، فينتزعه من مكانه فيلوكه في فمه ثم يلفظه، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكانًا عليًّا لولا جور السياسة وضلالها.

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينك، ولا أجدى عويلك وأنينك، فالحرب لم تزل باقية، ومصانع الموت لم يقنعها ما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض، حتى أصبحت تعد مثلها لمعارك السماء!

فهنيئًا لك أيها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة المطمئنة، فقد نجوت بها من حياةٍ لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت فيهلك غيظًا، أو ينطق فيموت كيدًا.

إنَّ الحكيم يستطيع أن يحيل الجهل علمًا والظلمة نورًا والسواد بياضًا والبحر برًّا والبر بحرًا، وأن يتخذ نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء، ولكنه لا يستطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة وفساده صلاحًا.

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه، وما دام لا يحسن إليه إلا إذا أراد أن يتخذه عبدًا يعبده من دون الله، وما دام للأثرة هذا السلطان الأكبر على أفراد المجتمع – من أكبر كباره إلى أصغر صغاره – فالإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والأحراش بالأمس، لا فرق بينه وبينه إلا أنه اليوم قد آوى بشروره ومفاسده إلى بيتٍ من الزجاج يفعل فَعَلاته من ورائه، ولكن الزجاج شفافٌ كثوب الرياء.

مقدمة «مختارات المنفلوطي»

عرفتُ حاجتك يا بُنَيَّ – أعزك الله – إلى كتابٍ يجمع لك من جيد منظوم العرب ومنثورها في حاضرها وماضيها، وفي كل فن وغرضٍ من فنونها وأغراضها ما تستعين باستظهاره، أو ترديد النظر فيه على تهذيب بيانك وتقويم لسانك. وعلمت أنك لن تستطيع أن تجد طِلبتك هذه في مختارٍ من مختارات المتقدمين، ولا في مجموعةٍ من مجموعات المعاصرين. أما المتقدمون فهم بين نحويٍّ لا يعجبه من الكلام إلا ما يجد فيه مذاق شواهد العلم الذي يعالجه، ولا تسكن نفسه إلا إلى البيت الذي يرى فيه عقدةً يتفصَّح بحلها أو خطأةً يتفكه بتأويلها، أو نادرةً من نوادر الإعراب والبناء يؤيد بها رأيًا أو يساجل بها خصمًا. ولغويٍّ مولع بما يشتمل على الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها، فلا يكاد يعدل بشعر الجاهلية وما جرى مجراه شعر طبقةٍ من الطبقات، ولا يرى غير كلامهم كلامًا، ولا مذهبهم مذهبًا. وعصر الجاهلية فيما أعتقد هو عصر الطفولة الشعرية؛ أي إنَّ الشعر كان فيه بسيطًا ساذجًا لم يهذبه العلم، ولم تصقله الحضارة، ولم تتصل به أشعة الخيال فتنير ظلمته، فهو وإن كان أصدق الشعر وأجدره أن يكون صفحةً صحيحة لتاريخ عصره، ولكن قلما يستفيد شاعر الحضارة من أكثره أكثر من المادة اللغوية. وما الفرق بين شعر الجاهلية وشعر طبقة المحدثين والمولدين من

بعده إلا كالفرق في الموسيقي بين نغمات الحُداة في أعقاب الإبل ونغمات الضاربين على أوتار الأعواد والبرابط في عصر الحضارة الإسلامية.

وعندي أنَّ للنزعة التاريخية سلطانًا على نفوس المولعين بالشعر الجاهلي أكثر من النزعة الفنية، فمثلهم كمثل المولعين بالعاديَّات الذين يؤثرون حجر الغرانيت على حجر الماس، ويعجبهم منظر هرم خوفو أكثر مما يعجبهم منظر برج إيفل. وراويةٍ همه في حياته أن يدور بيده ليله ونهاره في زوايا رأسه علَّه يعثر ببيتٍ لا يعرفه غيره منسوبًا إلى قائل لا يعرف نسبته إليه سواه، ثم لا يبالي بعد ذلك أحسن أم أساء، فهو بالمؤرخ أشبه منه بالأديب. وأديبٍ جمع ما جمعه لعصرٍ غير عصرك وقوم غير قومك، وحال ومجتمع غير حالك ومجتمعك، فإن أفادك قليله لا ينفعك كثيره، وأحسب أن ما جمعه من الشعر بالحماسة ووصف الحروب وأسلحتها، ودمائها وغبارها وأشلائها، ووصف الإبل في مباركها والشَّاءِ في حظائرها، والأبقار في مراتعها، هو آخر ما يحتاج المتأدب إلى النظر فيه في هذا العصر. وبين مطيل قد خلط جيده برديئه، وغثه بسمينه، فلا تصل يدك إلى ما في منجمه من ذرات التبر حتى تنبش عنها ما لا قِبَلَ لك باحتماله من حقائب الرمل. ومقصرٍ يختص بالاختيار عصرًا دون عصرٍ، أو فردًا دون فردٍ، أو قومًا دون قوم، أو بابًا من أبواب البيان دون بابٍ، وهو يعلم أن المتأدب – شاعرًا كان أو كاتبًا – لا يكمل أدبه، ولا تصفو

قريحته، ولا تلمع صفحة بيانه، ولا تنحل عقدة لسانه إلا إذا تمهَّل في روض البيان، فاقتطف ألوان زهراته من أنواع شجراته.

وأنَّ الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء عن البكاء والرثاء، ولا العتاب والود عن التشبيه والوصف، ولا البكاء على المنازل والديار وفراق الأحبة وموت الموتى، عن البكاء على المجد الضائع، والملك الساقط، والعِرْضِ المغلوب، والشرف المسلوب، كما لا يغنيه وصف السيف في رونقه وبهائه، عن وصفه في حدته ومُضَائه، ولا وصف البدر في جماله وروائه، عن وصفه في عزته وخيلائه، ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذَنَبِ القطاة، ولا تصوير ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة.

وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة البيان، ولا يصل إلى منزلة القدرة على الإفصاح عن أغراضه ومراميه في جميع مواقفه ومذاهبه، حتى يأخذ بأَزِمَّة القول جميعها، ويشتمل على أساليب الكلام بأنواعه، ويعلم أَنَّ الكتابة في العلم غير الكتابة في الأدب، وأن للخطب أسلوبًا غير أسلوب الكتب، وأن لكل نوع من أنواع العلوم والفنون طريقًا في الكتابة خاصًّا به لا يفارقه إلى غيره، ولا يشركه فيه سواه، وأنَّ الانتقاد غير الهجاء، والهجاء غير التهكم، والتهكم غير التأنيب، والتأنيب غير الإنذار والتهديد.

وأما المعاصرون فهم إما تابعٌ متأثر يعتمد في اختيار ما يختار على نباهة النابه، وفي اطِّراح ما يطَّرح على خمول الخامل، ويعتبر

التقدَّم في الزمن شافعًا يشفع في إساءة المسيء، والتأخر فيه ذنبًا يذهب بإحسان المحسن. وإمَّا خابطٌ مُتقمِّم يعتمد في الاختيار على يده لا على بصره، فيأخذ من كل كتاب صفحةً، ومن كلِّ ديوانٍ ورقةً، ثم يعرض على الأنظار كتابًا غريبًا في اختلاف ألوانه، وتزايل أوصاله، جامعًا بين معلقة امرئ القيس وألفية ابن مالك في مكانٍ، وبين مقامات البديع ومقامات السيوطي في مكان آخر. وإما عالمٍ أديب قد حال بينه وبين انتفاع المتأدبين بعلمه وفضله، وسلامة ذوقه وصفاء قريحته، أنه يبالغ في سوء الظن بأفهامهم، ويذهب في تقدير مداركهم مذاهب ما كان لمثله أن يذهب إلى مثلها، فتراه يعمد في اختيار ما يختار إلى ما يزعم أنه القريب إلى أذهانهم اللاصق بقولهم غير الملتوي عليهم، ولا المتعثر بهم، فيتبذَّل كلَّ التبذُّل، ويُسِفَّ كلَّ الإسفاف، ويورد في كتابه من قطع الشعر وجمل النثر ما يشبه أن يكون مادةً للطفل في هجائه، لا مادة للأديب في بيانه.

وسبيل كتب المختارات التي يراد منها غرس مَلَكَة البيان في نفس المتأدب غير سبيل كتب العلم التي لا يراد منها غير حصول ما تشتمل عليه من قواعد العلوم ومسائلها في ذهن المتعلم، ولن تستقر مَلَكَة البيان في النفس حتى يقف المتأدب بطائفةٍ من شريف القول – منظومه ومنثوره – وقوف المتثبت المستبصر، الذي يرى المعنى بعيدًا فيمشي إليه، أو نازحًا فيستدنيه، محلِّقًا فيصعد إليه أو متغلغلًا فيمشي في أحشائه حتى يصيب لُبَّه، ولا يزال يعالج ذلك

علاجًا شديدًا ينضح له جبينه، وتنبهر له أنفاسه حتى تتكيف ملكته بالكيفية التي يريدها.

وما أرى هذه النكبة العامة التي أصابت الناشئين في ملكاتهم الكتابية، وما رُزِئُوا به من نضوب مادتهم اللغوية والنزوع إلى تلك المنازع الأعجمية في التصوُّر والتخيل، إلا أثرًا من آثار تلك المختارات التي يجمعها لهم الجامعون جمعًا محفوفًا بالحذر والاحتياط. بل بما هو فوق ذلك من الخوف والوَسْوَاس، فيستكثرون لهم من أبواب الحكم والأخلاق، والمواعظ والزهد، وأمثال ذلك مما لا يكاد يتراءى فيه قلب الشاعر، ولا تتجلَّى فيه نفس الكاتب. ويفرون الفرار كله من كل ما يتعلق بوصف جمال الطبيعة، أو جمال الصناعة، أو تصوير عواطف النفوس وخوالجها في الخير والشر والعرف والنكر، كأنما يحسبون أنَّ كلَّ بيتِ غزلٍ بيتُ ريبةٍ، وكلَّ قصيدةٍ خمريةٍ حانةُ شرابٍ، وما سمعنا من قبل ولا نحسب أن سيسمع السامعون من بعد أنَّ متأدبًا أفسده ديوان غزلٍ، أو أغراه بالشراب وصف خمرٍ، لا، بل إنما يرد ذلك على من يرد عليه منهم من فساد الخلطاء أو ضلال المؤدبين.

أما الشعر المشتمل على وصف الجمال، والنثر المتضمن تصوير دقائق المعاني النفسية والخواطر القلبية – ما دام بعيدًا عن فاحش القول وهُجْره – فهو أعون الذرائع على تنمية ملكة الفصاحة والبيان في نفس الناشئ؛ لذلك لم أرَ بدًّا من أن أستخير الله تعالى في

أن أجمع لك – يا بُنَيَّ – في هذا السِّفْر من جيد المنظوم والمنثور ما أعلم أنه ألصق بك وأدنى إليك، وأنفع لك في تثقيف عقلك وتقويم لسانك، وتحليل ما أَسْأَرَتْهُ الأيام من العُجْمَة في قلمك ولسانك، فهززتُ لك دوحة الأدب العربي هِزَّةً تناثرت فيها هذه الثمرات الناضجة التي تراها بين يديك، ولم أترك من ورائي في جميع ما تصفحته من دواوين الشعر، ومجاميع الأدب، وكتب المختارات إلا ما كان رديئًا أو مشوبًا بشيءٍ من هُجْر القول ومعيبه، أو بالغًا من الشهرة والسيرورة منزلةً لا يخطئها نظر الناظر، أو واقعًا في منزلة بين الجودة والرداءة. وقد جعلت قاعدتي في الاختيار جمال الأسلوب أولًا، وجمال المعنى ثانيًا، فربما أختار ما حسن لفظه وتوسَّط معناه، وقد أختار ما توسَّط لفظه وسما معناه. كما صنعت في بعض مختارات قِسْم المنثور من الباب الأول، وهو باب الفصاحة والبيان. ولكنني لا أختار بحالٍ ما كان معناه ساميًا ونظمه فاسدًا، أما الجيد فقاعدته عندي ما يأتي: «كلُّ كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارئ وجد في نفسه الأثر الذي أراده الكاتب منه، من حيث لا يجد فيه مسحةً تدل على أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغًا؛ فهو بليغ.»

ولا أكتمك أني قد استجزت لنفسي ما استجازه لأنفسهم المختارون من قبلي، فتصرفت في قليلٍ من المختارات بعض التصرف بالتقديم والتأخير، والاختصار والتلخيص والحذف، وقد لقيت في

هذا السبيل – وفي كل سبيلٍ سلكته – إلى جمع هذه المختارات عناءً كثيرًا لا أسألك يا بُنَيَّ عليه أجرًا سوى أن تنتصح بما أنصحك به في كلمتي هذه، وهي أنك لن تستطيع أن تنتفع بهذه المختارات إلا بشروطٍ ثلاثة؛ أولها: أن تملأ قلبك من الثقة بها والسكون إليها حتى لا يصرفك عنها صارفٌ، ولا يخدعَك عنها خادع. وثانيها: أن تقف بها وقوف الدارس المتعلم لا وقوف المتنزه المتفرج، فلا يمنعك فهم ما فهمته من معاودته وترديد النظر فيه حتى ترشف فيه من الكأس ثمالتها، ولا ريبة تُصعِّب عليك من مراجعته والاختلاف إليه والتغلغل في أحشائه، فإنك لا بدَّ مَاخِضٌ زُبْدَتَهُ ومصيبٌ لُبَّه. وثالثها: أن تحمي نفسك النظر في هذه المخطوطات المختلفة التي تتجدد كل يوم أمام عينيك في أسفار هذا العصر وصحفه، فإنَّ التربية الكتابية مثل التربية الأخلاقية يسري فيها الداء ثم يُعْوِزُ الدواء، اللهم إلا ما كان من أمثال ما يكتبه الكُتَّاب وينظمه الشعراء الذين اخترت لهم في هذا الكتاب في المعاني التي عُرِفوا بها وبرَّزوا فيها. فإن أخذتَ بنصيحتي وعنيت بها العناية كلها، وكنت ممن رزقهم الله قريحةً خصبة صالحة لنماء ما يُغرس فيها من البذور الصالحة، بلغتَ ما أردتُ لك إن شاء الله تعالى.

وا رحمتاه!

في ذلك البلد القَفْر من تلك الصحراء المحرقة من هذا الإقليم القاحل طائفةٌ من فقراء المسلمين وضعفائهم، لا يملكون من الحول غير قلوبٍ يملؤها اليقين بالله، والثقة به، والاعتماد عليه، ولا من القوة غير ألسنةٍ لا تزال تهتف في صباحها ومسائها وبكورها وأصائلها بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولَّى أمرهم، ويسدِّد خطواتهم، وييسر لهم السبيل إلى الخلاص من ذلك العدوِّ القاهر الذي نزل بهم في دار أمنهم وسكونهم نزولَ القضاء الذي لا مَرَدَّ له، ولا منتدح عنه، يريد أن يسلبهم ما أبقتْ يد الأيام في أيديهم من لقيماتٍ غير سائغة، وجرعات غير هنيئة، وظلٍّ غير ظليل.

وا رحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس! إنهم عاجزون عن أن يُعِدُّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله ورصاصه غير أجسام ستصبح في الغد أشلاءً ممزقة تطؤها النعال وتدوسها الحوافر، وقلوب لا تزال تدق حتى تسمع دقات المدافع والبنادق فتسكن، وأوراح ستطير في علياء السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء.

وا رحمتاه لهم! إنهم يستغثون فلا يجدون مُغيثًا، ويستصرخون فلا يسمعون مجيبًا، قد تقطعت بهم الأسباب، وأعوزتهم الوسائل وسدَّت في وجوههم السبل، فلم يبقَ لهم منها إلا سبيل الموت، وفي

الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها، لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم أراملَ ضعفاء، وأيتامًا صغارًا، وشيوخًا كبارًا لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر في صدره من نعيم أو شقاء.

كَأني أراهم وقد غَلَتْ في صدورهم حَمِيَّة الدين والوطن، ودارت في رءوسهم سكرة العزة العربية، فأبوا إلا أن يتقدموا إلى الموت الأحمر تقدم المستقتل المستبسل، الذي يعلم أن باب الحياة الأبدية السعيدة لا يفتح إلا بين يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدرتها، فتجرَّدت من أثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها. وكأني أرى الرجل منهم وقد دخل إلى بيته ليعد عُدَّته، ويودِّع أهله الوداع الأخير، فبكت أمه وناحت زوجته، وصاح ولده، فبكى لبكائهم، ورنَّ لرنينهم، لا جزعًا من الفراق؛ لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى، ولا خشيةً من الموت؛ لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يضنَّ صاحبها بروحه في سبيل الله حرصًا عليها، بل مخافة أن تستبدَّ بأعراض بيته وحرماته تلك الأيدي الظالمة التي لا ترحم صغيرًا ولا تعطف على كبير، أو أن يهلكوا من بعده جوعًا وفقرًا؛ لأنه لم يترك لهم قوتًا يتبلَّغون به ولا عمادًا يعتمدون عليه، فإذا علم أن موقفه بينهم موقفٌ جللٌ يكاد يُغلب فيه على أمره حزنًا وإشفاقًا، نظر في زرقة السماء نظرةً طويلة أرسل فيها إلى حضرة ربه كلَّ ما تهتف به نفسه القريحة من وَجْدٍ ورحمةٍ وبكاءٍ وحنين، ثم انفتل من بين أيديهم انفتالًا، ومضى

لسبيله لا يلوي على شيءٍ مما وراءه حتى يبلغ ساحة الحرب، فلا يزال يقرع باب الحياة الأخرى حتى يُفْتَح له.

هنالك تنوح النائحات، وتبكي الباكيات، وتطير النفوس وتُصعق القلوب، وترنُّ المنازل والدور بالنحيب والتعديد، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم ترَ في حياتها وجه الشمس إلا من كُوَّةِ بيتها بارزة الوجه، عارية الرأس، حَيْرى مولَّهة هائمة في الطرق والمذاهب، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها. فإما بقيت في حَيرتها بياض يومها وسواد ليلها، وإما عادت إلى بيتها بالثُّكْلِ القاتل والحزن الدائم. وترى الشيوخ الكبار، والأطفال الصغار والعاجزين والضعفاء لائِذِينَ بالتلال والآكام يتقون بها صواعق الحرب وشهبها فلا تقيهم، أو عائذين بالمضايق والمنافذ يفرُّون إليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم. وهنالك ترى أولئك القوم الذين يسمُّون أنفسهم مجاهدين أو فاتحين، أو قوادًا عظامًا أو سُوَّاسًا كبارًا يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مِشية الفرِح المختال، وينظرون إلى أولئك القوم الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم نظر السيد إلى مولاه الذي ملك ولاءه بماله، واستعبده بفضله وإحسانه. وربما رمَوا إليهم في تلك الساعة بلقيماتٍ كتلك التي يلقيها سيد الكلب إلى كلبه، أو صاحب الماشية إلى ماشيته؛ ليُشْهِدُوا العالم الإنسانيَّ بأجمعه على كرمهم وسخائهم وعطفهم ورحمتهم، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا

قطعوا الأوصال ولا يَتَّمُوا الأطفال، ولا انتهكوا الحرمات، إلا خدمةً للإنسانية العامة وإجلالًا لشأنها.

لا أحسب أنَّ مسلمًا دخل الإيمان قلبه، فملأه رحمة وإحسانًا وعطفًا وحنانًا يستطيع أن يتَّخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعًا، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قرارًا؛ حزنًا على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الأرض ومغاربها يتلمَّسون ناصرًا يعينهم على أمرهم، أو مُنجدًا يدفع عنهم عادية البلاء، فلا يجدون إلا أممًا إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل، فهي تعجز عن النظر لنفسها فأَحْرَى أن تعجز عن النظر لغيرها. فلم يبقَ بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يُمِدُّوهُمْ بقليلٍ من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم، ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعًا من بعدهم.

أيها المسلمون

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفًا هو أقرب إلى الله، وأدنى إلى رحمته وإحسانه، وأجلب لمغفرته ورضوانه من موقفكم بين هؤلاء الضعفاء المساكين تطعمون جائعهم، وتكسون عاريَهم، وتسلحون أعزلهم، وتعالجون جريحَهم، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده.

إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا إلى أنفسكم، وإن تنقذوهم من كُربتهم تنقذوا جامعتكم وملَّتكم، فإن بينكم وبينهم لُحْمةً أقوى

من لُحمة النسب، ووشيجةً أوثق من وشيجة القربى، وإنكم جميعًا تصلُّون إلى قبلةٍ واحدة، وتهتفون في الغداة والعشي بذكرٍ واحدٍ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم إلى إلهٍ واحدٍ، وتقفون في بيت الله وحرمه بين الركن والمقام موقفًا واحدًا.

أيها المسلمون

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غدًا، وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده، وإنكم إن قدَّمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم، ووفَّى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته، وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

خطبة الحرب

يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، وذادة المعاقل والحصون، صبرًا قليلًا في مجال الموت، فها هي ذي نجمة النصر تخفق في آفاق السماء، فاستنيروا بنورها واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم.

إنَّ الله وعدكم النصر، ووعدتموه الصبر، فأنجزوا وعدكم ينجز لكم وعده.

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار، فوالله إن فررتم لا تفرون إلا عن عِرضٍ لا يجد له حاميًا، ودِينٍ يشكو إلى الله قومًا أضاعوه، وأنصارًا خذلوه.

إنكم لا تحاربون رجالًا أشدَّاءَ بل أشباحًا تتراءى في ظلال الأساطيل، وخيالاتٍ تلوذ بأكناف الأسوار والجدران، فاحملوا عليهم حملةً صادقة تطير بما بقي من ألبابهم، فلا يجدون لبنادقهم كفًّا ولأسيافهم ساعدًا.

إنهم يطلبون الحياة وأنتم تطلبون الموت، ويطلبون القوت وتطلبون الشرف، ويطلبون غنيمةً يملئون بها فراغ بطونهم، وتطلبون جنةً عرضها السموات والأرض، فلا تجزعوا من لقائهم، فالموت لا يكون مر المذاق في أفواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله وتثقون بعدله ورحمته، فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين، فما كان الله ليخذلكم ويكلكم إلى أنفسكم وأنتم من القوم الصادقين.

إنَّ هذه القطرات من الدماء التي تسيل من أجسامكم ستستحيل إلى شهبٍ ناريةٍ حمراء تهوي فوق رءوس أعدائكم فتحرقهم. وإنَّ هذه الأنات المترددة في صدوركم ليست إلا أنفاس الدعاء صاعدةً إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم، والله سميع الدعاء.

إنَّ أعدائكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نسائكم، وأخذوا بلحى شيوخكم الأجلاء فساقوهم إلى حفائر الموت سوقًا، فماذا تنتظرون بأنفسكم؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم، واصدقوا حملتكم عليهم وجعجعوا بهم، واقتلوهم حيث ثقفتموهم، واطلبوهم بكل سبيلٍ، وتحت كل أرضٍ وفوق كل سماء، وأزعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقظتهم ومنامهم، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين!

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبورًا، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا يكون حفرةً من حفر النار.

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين، ولا الواسطة بين الطرفين، ولا العيش الذي هو بالموت أشبه منه بالحياة، بل اطلبوا إما الحياة أبدًا وإما الموت أبدًا.

غدا يخفر أعداؤكم حرمة أرضكم وديباركم، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم، ويطئون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم، وينظمون في ثقوب آنافكم مقاود يقودونكم بها إلى مواقف الذل والهوان كما تقاد الإبل المخشوشة إلى معاطنها، فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون.

موت الجبان في حياته، وحياة الشجاع في موته، فموتوا لتعيشوا، فوالله ما عاش ذليلٌ ولا مات كريم.

إنَّ هذه الأساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهها إليكم، والبنادق المسددة إلى صدوركم ونحوركم لا يمكن أن يتألف منها سورٌ منيعٌ يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار، فسيروا في طريقكم إلى آخرتكم؛ فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت.

المستميت لا يموت، والمستقتل لا يقتل، ومن يهلك في الإدبار أكثر ممن يهلك في الإقدام، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغي الموت.

إنَّ كُتَّاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسناتٍ أو سيئات. فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تجدونه في نفوسكم عندما تقرءون تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظماء.

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غدًا أذلاء.

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم، وتنشدوه فيعجزكم.

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم، وتغسلكم دماؤكم، وتصلي عليكم ملائكة الرحمن، قبل أن يسبق قضاء الله فيكم، فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلمًا يصلي عليه صلاة الجنازة، ثم يرافق نعشه إلى قبره حتى يودعه حفرته، ويخلي بينه وبين ربه.

إنَّ الشيخين أبا بكر وعمر، والفارسين خالدًا وعليًّا، والأسدين حمزة والزبير، والفاتحين سعدًا وأبا عبيدة، والمهاجرين طارق بن زياد وعقبة بن نافع، وجميع حماة الإسلام وذادته السابقين الأولين المجاهدين الصابرين يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم، فامضوا لسبيلكم، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم، وقولوا لهم: «إنا بكم لاحقون، وإنا على آثاركم لمهتدون.»

إنَّ هذا اليوم له ما بعده، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم، فإنكم إن فعلتم لن يعبد اللهُ بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا!

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمةٌ، أو نزلت به نازلةٌ، وهي المُطَّلعُ الذي تُشْرِق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه، وتكشف غماءه. وهي الحَكَمُ العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها. وهي السلطان المطلق الذي يجلس في كرسي عظمته وجلاله، فتخر له جميع الجباه سُجَّدًا، وتبتدر يديه لثمًا وتقبيلًا.

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الجوهرية الثابتة التي رأت طينة آدم أولًا، وسترى نفخة إسرافيل آخرًا، والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره، وسهله وحَزْنه، وحياته وموته، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره، وصلاحه وفساده، واستقامته واعوجاجه، لا يتغير لونها، ولا يتحول ظلها، ولا تستحيل مادتها، ولا تبلى جِدَّتها على كرِّس الليالي ومر الأيام.

ما من جامعة من الجوامع القومية أو الجنسية أو الدينية أو الأهلية إلا وهي تعتمد على الجامعة الإنسانية في سيرها، وتستظل بظلها، وتهتدي بهديها، فالمجاهد الوطني يقول: «إني أدافع عن وطني وأحمي حوزته، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد

المناضل؛ لأني أعتقد أنني إن أغفلت ذلك وأغفله في وطني كلُّ مضطلع بمثل ما أنا مضطلعٌ به في وطني، تساقطت الحوجز القائمة في وجه المطامع البشرية، فجرى سيلها متدفعًا لا يقوم له شيءٌ حتى يأتي عليه.» والفاتح الديني يقول: «إني أعتقد أنَّ الإنسانية لا تزال معذبةً يأكل قويها ضعيفها، ويغتال كبيرها صغيرها، ويستضعف حاكمها محكومها حتى تدينَ بالدين الذي أدين به، فأنا إنْ حاربت البلاد وقاتلت العباد، فإنما أريد أن أخوض هذا البحر الأحمر من الدماء لأصل إلى سفينة الإنسانية المشرفة على الغرق، فأستخلصها من يد الموت الذي يساورها.»

هكذا يقول دعاة الدين، ودعاة الوطن، ودعاة كل جامعةٍ، وهكذا يجب أن يقولوا، فإن لم يفعلوا وأَبَوْا إلا أن يُغفلوا الجامعة الإنسانية في دعائهم إلى جوامعهم التي يدعون إليها، فليعلموا أنَّ الإنسانية مِلاك كلِّ شيءٍ، فإذا ذهبت ذهب بذَهابها كلُّ شيء.

ليس لساكن وطنٍ من الأوطان، أو صاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسكن وطنًا غير وطنه، أو يدين بدين غير دينه: «أنا غيرك، فيجب أن أكون عدوك!» لأن الإنسانية وَحْدةٌ لا تَكَثُّرَ فيها ولا غَيْرِيَّةَ، ولأن هذه الفروق التي بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ومواطن إقامتهم وألوان أجسادهم وأطوالهم وأعراضهم، إنما هي اعتباراتٌ واصطلاحات، أو مصادفاتٌ واتفاقات تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكونه واستتمام خلقه، وتختلف عليه اختلاف

الأعراض على الأجسام. ففي كل بلدٍ وفي كل يوم يستعجم العربي، ويستعرب الأعجمي، ويسلم المسيحي، ويتهوَّد الوثني، ويلحد المؤمن، ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربي، ويستغرب المشرقي. ولو أشاء أن أقول لقلت: إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ينتهي طرفها الآخر بوطنٍ غير وطنه، ودينٍ غير دينه، وأمةٍ غير أمته.

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره جاز لكل بلدٍ أن يتنكر لكل بلد، بل جاز لكل بيتٍ أن ينظر تلك النظرة الشَّزْرَاءَ إلى البيت الذي يجاوره، بل جاز للأب أن يقول لولده، وللولد أن يقول لأبيه: «إليك عني، لا تمد عينيك إلى شيءٍ مما في يدي، ولا تطمع أن أُوثِرَكَ على نفسي بشيءٍ مما اختصصتها به؛ لأنني غيرك، فيجب أن أكون عدوك!» وهنالك تنحلُّ كلُّ عقدةٍ، وتنفصم كل عروةٍ، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغض والشحناء ما يرنق عيشه، ويطيل سُهْدَه، ويقلق مضجعه، ويحبب إليه صورة الموت، ويُبغِّض إليه وجه الحياة، وهنالك يصبح الإنسان أشبه شيءٍ بذلك الإنسان الأول في وحشته وانفراده، يقلب وجهه في صفحات السماء، ويفتش بيديه في طبقات الأرض، فلا يجد له في الوحشة مؤنسًا ولا على الهموم معينًا.

الجامعة الإنسانية أقرب الجوامع إلى قلب الإنسان، وأعلقها بفؤاده وألصقها بنفسه؛ لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف، وإن كان

ذلك المصاب تاريخًا من التواريخ أو خيالًا من الخيالات؛ ولأنه لا يرى غريقًا يتخبط في الماء، أو محروقًا يتقلب في النار حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله، فيقف موقف الحزين المتلهف إن كان ضعيفًا، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل إن كان قويًّا. ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب، فيخفق قلبه وتطير نفسه؛ لأنه يعلم أنَّ أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية، وإن لم يكن بينه وبينهم صلةٌ في أمرٍ سواها، ولولا أن ستارًا من الجهل والعصبية يُسْبِله كل يوم غلاة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء والبسطاء، لما عاش منكوبٌ في هذه الحياة بلا راحم، ولا ضعيفٌ بلا معين.

لا بأس بالوطنية ولا بأس بالحميَّة الدينية، ولا بأس بالعصبية لهما والذياد عنهما، ولكن يجب أن يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها؛ أي أن تكون جميع دوائر المجتمعات باقية في أماكنها دائرةً حول نفسها، بحيث لا تخرج واحدة منها عن دائرة الإنسانية العامة التي تضمها جميعًا وتشتمل عليها. والوطنية لا تزال عملًا من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية، فإذا هي خيالاتٌ باطلة وأوهام كاذبة، والدين لا يزال غريزة من الغرائز المؤثرة في صلاح النفوس وهداها، حتى يتمرد على الإنسانية ويعتزلها، فإذا هو شعبةٌ من شعب الجنون.

فإن كان لا بدَّ للإنسان من أن يحارب أخاه أو يقاتله، فليحاربه مدافعًا لا طاعنًا، وليقاتله مؤدِّبًا لا منتقمًا، وليقف أمامه في كل

ذلك موقف المحق المنصف والشفيق الرحيم، فيدفنه قتيلًا ويعالجه جريحًا، ويكرمه أسيرًا، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق، أو صديقه الحميم على ذُرِّيَّتِه من بعده، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله:

إذا احْتَرَبَتْ يومًا ففاضت دماؤها تذكَّرت القربى ففاضت دموعها

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمةً هائمةً متبديةً على الفطرة البيضاء النقية لا تعبث الحضارة بجمالها، ولا تُغبِّر المدنية في وجهها. تطلع الشمس في آفاقها فتتبسط على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها من حيث لا تعترض في سبيلها من المظلات سحبٌ ولا من السقوف حُجبٌ. وينبت نباتها حيث يجري ماؤها لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير، ولا تقويس ولا تعريج. ويجري ماؤها في سبيله متدفِّقًا حيث ينساب به تسلسله واطراده، لا تلوي به عن قصده الحفائر، ولا تتنصب في وجهه القناطر. ويهيم وحشها في جبالها، وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الأول عرينٌ موصودٌ، ولا الآخر قفص محدود. والشِّعْر من وراء ذلك كله مِرآة صافية، تتمثَّل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وجوهرها.

ينطق العربي بما يعلم، ويقول ما يفهم، ويصور ما يرى، ويُحَدِّث عما تمثل في نفسه حديثًا صادقًا لا تكلف فيه ولا تعمُّل؛ لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء، وأرض وسماء، وطعام وشراب، ومرافق وأدوات، على الفطرة السليمة الخالصة، فأَحْرَى أن يكون شِعْرُه كذلك.

ذلك كان شأن الشعر العربي – والعرب على فطرتهم – وذلك معنى قولهم: «الشعر ديوان العرب»؛ لأنه صورة حياتهم الاجتماعية

والأدبية، وتمثال خواطرهم الحقيقة والخيالية، فإن ظن ظانٌّ أنَّ التماثيل والنُّصُب، والمخطوطات والمنسوجات، والصور والتهاويل، وبقايا الآثار وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان والفينيقيين والفراعنة أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب، قلنا له: «ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وتحدَّث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته، أما الديوان العربي فصورةٌ صحيحة، وآية مقدسةٌ لا تغيير فيها ولا تبديل.»

ثم جرت بعد ذلك جَوَارٍ بالسعد والنَّحْس، فانتقلت الأمة العربية من بداوتها إلى حضارتها، وهاجر معها شعرها بهجرتها، فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران المجيدان بشار وأبو نواس، فطرقوا معانيَ لم تكن مطروقة، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة، فقلنا: لا بأس، فالشعر العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته في جميع شئونها وحالاتها، حتى جاء أبو تمام شيخ المحسنات اللفظية، فسلك – إلى أكثر معانيه البديعة – طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المزخرف، فثغر في الشعر العربي ثغرةً ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صيروها بابًا أفوه، لا يمنع ما وراءه ولا يدفع ما أمامه. فأصبح الشعر على عهد ابن حجة، وابن الفارض، وابن مليك، والصفدي، والسراج، والجزار، والحلي، وأمثالهم، أشبه شيء بتلك الآنية الفضية – أو

الصينية – التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم، وعلى أطراف موائدهم، ظهرًا زاهيًا، وبطنًا خاويًا، لا تشفي غلة، ولا تبض بقطرة، ولا تسمن ولا تغني من جوع، ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلةٍ أدون من هذه المنزلة، فجاءوا بشيءٍ هو أشبه الأشياء بتلك المقاييس والتفاعيل التي وضعها الخليل ميزانًا للشعر لا يروق لفظها، ولا يُفْهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر بضعة قرونٍ وقفةً لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل، حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلًا في هذا العهد الأخير أخذوا بيده، ونشروه من قبره، ونفضوا عنه غباره، فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم أجسام أبي نواس، وأبي عبادة، وأبي تمام، والشريف، وبشار، لا فرق بينهم وبينهم، إلا أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار، وأولئك مبتدعون يفترعون الأبكار.

حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيع أن أتصور الفرق بين رجلٍ يمد يده إلى خزينةٍ من خزائن بيتي فيسرق مالي، وبين آخر يمدً لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه. كلاهما مجرمٌ فاتك، وكلاهما لصٌ مغتال، وإن كان أولهما في نظر القانون وفي نظر الناس أكبرهما إثماً، وأسوأهما أثرًا.

المال خادمٌ من خُدَّام الشرف، وحاجبٌ من حجابه للوقوف على بابه، ولولا مكان الشرف والكلف بصيانته والضَّنُّ به أن يعبث بجوهره عابثٌ، ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أربٌ أكثر من أن يقيم به صلبه ويمسك به حوباءه، فإن كان سارق المال مجرمًا من حيث كونه هاتكًا لذلك الستار المسبل دون الشرف، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه أن يكون رأس الجانين وأكبر المجرمين.

يكون للرجل من الصحفيين مثلًا عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم، مأربٌ من المآرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقًّا، ولا يمتُّ إليها بسببٍ من الأسباب الظاهرة أو الباطنة، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من مُرَيَّشَات سهامه يصيب به مَقْتلًا من شرفه، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يمكنه من لحيته يلف عُثْنُونها حول أصابعه، ثم يقوده بها إلى حيث شاء كما يقاد التيس إلى مَرْبَعه.

يحب الرجل المجد حبًّا يملأ ما بين جوانحه، ويغري به حتى يصبح آثر في نفسه من نفسه التي بين جنبيه، ويظل يقضي سواد لياليه يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه، ويطوي بياض نهاره بين شمسٍ تحرق عارضيه، وحصباء تمزق قدميه، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حربًا عوانًا، يحمل في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر كلفًا به ووجدًا عليه، حتى إذا أمكنه المقدار منه، وبدأ ينهل أول نهلةٍ من مورده البارد العذب، رآها ممزوجة بذلك العلقم المرِّ مما صبَّه له في إنائه ذلك المجرم الأثيم.

إنَّ بين جدران بعض قاعات الصحف قومًا مفاليك، قد دارت عيهم الأيام دورتها، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ممن وُلِدَ مولدهم، ونشأ في تربيتهم، فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو أنَّ الله أبقى لهم – بعد أن سلبهم فضيلة الفَهْم والعلم – مزية العمل الصالح، والسيرة المستقيمة. فلما لم يجدواَ بين أيديهم منفذًا ينفذون منه إلى القوت، فتحوا حوانيت للتجارة بأعراض الناس سمَّوها صحفًا، وأكثر مشتملات حوانيتهم من تلك البضاعة: أعراض الأشراف والعظماء، وأرباب الجِدّ والعمل الذين سبقوهم إلى فردوس السعادة، وخَلَّفُوهم وراءهم يتأَكَّلون غيظًا؛ لحرمانهم مما قسم الله لهم، فَهُم إن فتشت عنهم، وكشفت عن دخائل نفوسهم، علمت أنْ لا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل العظماء والأمراء، وأستغفر الله! فللفوضويين

مبدأٌ منظمٌ يتقلَّدونه، ورأيٌ في تلك الجرائم على ما به من خطل يتمذهبون به من حيث كونه عقيدةً ثابتة لا تجارةً رابحة، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين، ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزوَّدون وهم مُقْفَرو الأيدي من الزاد.

ولقد كان يكون خطبهم سهلًا ومصابهم محتملًا لو أنهم صرَّحوا عن أنفسهم، وأبدَوا للناس صفحات وجوههم، وطلبوا قُوتَهُم من طريق الكُدْية الواضحة البينة، ولكنهم مُراءون مُخادعون يشتمون باسم الموعظة، ويقرضون الأعراض باسم النصيحة، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية، ويملئون فضاء الأرض والسماء كذبًا وابتداعًا وتدليسًا وتضليلًا باسم الوطنية، ووالله ما بهم من وطنيةٍ ولا دين، ولا عظة ولا نصيحة، ولكنهم قوم محدودون قد بلغت الفلاكة من نفوسهم مبلغها، وضاقت بهم الأرض الفضاء على رحبها، فهم يُرَوِّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء، وتنغيص لذة السعداء، ويطلبون قُوتَهُم فيما بين ذلك من يد تلك الفئة الساذجة من الأمة التي لا تستطيع أن تفرق بين أشراف الصحافة والدخلاء فيها، وبين الكاتب الذي يكتب لِيُقَوِّمَ مُعوجًّا، أو يصلح مختلًا، أو يرفع بدعةً باطلةً، أو يكشف حقيقةً خافية، والآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس صعودًا وهبوطًا، والذي لا يلذه شرب الماء، إلا ممزوجًا بالدماء. ووالله ما أدري من الذي أقامهم هذا المقام وعهد إليهم بهذا العهد؟! ومن الذي وكل إليهم النظر في

شئون الناس والفصل في قضاياهم والقيام على حسناتهم وسيئاتهم؟ إنهم ليسوا بالبررة الأتقاء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلةً حسنة في منازلهم فيكونوا قدوةً صالحة في أمتهم، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم ونترسَّم مواقع أقدامهم، ولا بالصادقين المخلصين الذين يؤثرون أمتهم على أنفسهم فنتعبد بإجلالهم وإعظامهم. بل ليس لواحدٍ منهم فضل الصانع في مصنعه ولا التاجر في حانوته، فضلًا عن الوزير في كرسيه والأمير في عرشه، فيصلح أن يكون حكمًا بينهم، وميزانًا لحسناتهم وسيئاتهم، وعندي أن لو جمعت عيوب الناس جميعها في كفة ميزانٍ ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة، والكذب، والنميمة والتجسس، وهتك الأعراض، واتهام الأبرياء، واستهواء الضعفاء، لثقلت كِفَّتهم أمام كِفَّة الذين يزعمون أنهم يُقَوِّمُون معوجهم، ويصلحون فاسدهم!

الفهرس

البعوض والإنسان.....٣
الجزع.....٨
الاتحاد ١٢
النبوغ.....١٧
البائسات.....٢٣
مدرسة الغرام.....٢٧
البيان.....٣١
السريرة ٣٨
زيدو عمرو.....٤١
أبو الشمقمق.....٤٥
دورة الفلك.....٥٠
تأبين فولتير.....٥٣
العلماء والجهلاء.....٦٦
الرجل والمرأة.....٦٩
الدعوة.....٧٤
العبرات.....٧٨
دمعة على الإسلام.....٨٢
السياسة.....٨٨

خداع العناوين.....٩١
اللقيطة.....١٠٢
الصندوق.....١١٠
الغناء العربى.....١١٤
التوبة.....١٢٤
الحسد.....١٣٢
الوفاء.....١٣٤
خبايا الزوايا.....١٣٨
الجامعة الإسلامية.....١٤٢
الوجهاء.....١٥١
الرسائل.....١٥٨
الكلمات.....١٦٥
الحياة الذاتية.....١٧٥
القمار.....١٨١
الأوصياء.....١٨٥
العام الجديد.....١٩٣
سحر البيان.....١٩٨
الكبرياء.....٢١١
الانتحار.....٢١٥
الحياة الشعرية.....٢١٨

رباعيات الخيام.....٢٢١
إلى تولستوي.....٢٢٥
مقدمة مختارات المنفلوطي.....٢٣١
وا رحمة!.....٢٣٨
خطبة الحرب.....٢٤٣
الإنسانية العامة.....٢٤٧
أدوار الشعر العربى.....٢٥٢
حوانيت الأعراض.....٢٥٥

طبع بمطابع دار المعارف